رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أثر التصوف في العقيدة(١)

طلبت الرابطة الإسلامية إلىٰ الأستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن الوكيل أن يلقي بدارها محاضرة بالعنوان السابق، فلبىٰ الدعوة وألقىٰ هذه المحاضرة مساء الأحد ٣٠/ ١٠/ ١٩٤٩، وكان لها أجمل الأثر في نفوس المستمعين الذين غصت بهم دارها، كما كان لها عين الأثر في نفوس أصحاب الدعوة، حيث جلَا الأستاذ نواحي غامضة من هذا الأخطبوط الذي جثم علىٰ صدر الأمة الإسلامية من زمن طويل.

نسأل الله أن يحسن خلاصها منه فتعود إلىٰ دينها وعقلها، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

قال الأستاذ:

الحمد الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

أيها السادة: محاضرتنا الليلة هي: (أثر التصوف في العقيدة) وفي عنوانها تسامح أو إطلاق، لو أردنا تقييده لقلنا: من أثر التصوف في العقيدة. هذا لأننا لن نستطيع في محاضرة واحدة استيعاب كل أثر للتصوف في العقيدة، فحسبنا أن نشعل في غياهب الليل ثقابًا ينير بعض معالم الطريق فيعين المدلج علىٰ الهداية والساري علىٰ بلوغ الغاية.

ولعل فيما سأقوله أيها السادة ما يغضب فريقًا من أولئك الذين يتعشقون الصوفية تحت نقابها الزائف الساحر من الروحانية، ويفهمون أنها الحقيقة القدسية الإشراقية، تنهل من غيوبها الأزلية الروحية العليا للدين، وترف من معبدها الحالم

---

(١) مجلة الهدي النبوي (٢-٤/ ١٣٦٩هـ).

عطور الروح الأعظم، إذا النفوس نشاوىٰ، وإذا الأرواح ترتل الأغاريد في محاريب الخلود، وإذا الحقيقة الكونية في وجوداتها المتباينة تصبح في ذاتيتها الحقيقة الإلهية.

فالصوفية عند عشاقها تجريد وتقويم، تجريد للبشرية من ماديتها حتىٰ تصبح أغرودة الملائكة في رحاب العرض، وتقويم لكل معنىٰ وجودي كائن بقيم الذات الإلهية.

نعم سيغضب من يفهم هذا في الصوفية، ولكن من أجلِّ معاني الغضب أيها السادة أن يكون متجردًا للحق، والله هو الحق، وكتابه حق، ورسوله حق، فواجب إذن أن نصطنع الجميل من الصبر، والخالص الدقيق من التفهم، والبصير النير من الوعي، والشاعر الملهم من الإدراك، لنعرف الحقيقة في قدسيتها ونقائها وإشعاعها الأسمىٰ.

ونحن - والذي نفسي بيده - ما نهدف إلا لبيان حق رسم بأنه باطل، وتجلية إيمان موحد زعموه نزوة شرك، وزندقة ملحد.

نهدف إلىٰ تجلية الحقيقة التي تستلهم هدىٰ الله الحق، ونقتبس النور المشرق من كتابه الحق، وتشهد علىٰ صدقها سنة نبيه الحق.

فلندع التعصب الأسود الأرعن، ولنتجرد لحظات من أهواء النفس، ونزوات الحس، ولننظف عقولنا من عناكب التقليد الأحمق، ولندع القلب لحب الله وحب رسوله، ولندع العقل والفكر يسمعان من سموات العلىٰ بيان الله في كتابه.

لنفهم ونؤمن بالحق، فندافع عنه - لا بأضعف الإيمان - بل بأعزه وأقواه شكيمة، وشدة صبر، وقوة جِلاد.

وسأتجرد - واللهِ ما وسعني - من هواي الذي قد ينزع بي إلىٰ إغماضة العين عن النور، إن كان ثمت في غير دين الله الحق شعاع من النور.

سأتجرد من مشبوب الثورة، وعاصف الهوىٰ، لأعرض عليكم أيها السادة

تلك الحقائق صافية إلا من الحق، نقية إلا من الصدق، ولنكن مع الله يكن الله معنا.

الكيد للإسلام:

من أجل نعم الله سبحانه - وكل شيء له نعمة - أنه أرسل إلىٰ البشرية جمعاء خاتم الرسل(١) والنبيين محمدًا ﷺ بدين الإسلام ليظهره علىٰ الدين كله، فهو دين تتمثل فيه كل القيم الوجودية السامية لما تسمو به النفس من عقيدة وإيمان، ولما تشرق به الإنسانية المهذبة من نبل وأخلاق، ولما تزكو به النفوس من طهر وإشراق، ولما تحيىٰ به القلوب من عواطف البر والرحمة والإيثار، ولما تتألق به العقول من معرفة وأفكار.

إنه دين يسلك البشرية في وحدة سامية القيم تؤكد وحدتان: وحدة العبودية، ووحدة الجنس في بدئه وغايته؛ فهو يفرض علىٰ البشر أن يتوجهوا بخالص العبودية وأصدق الحب إلىٰ الله رب العالمين وحده، فيتوحد العالم كله في نطاق العبودية الحقة الخالصة لله الواحد، مستشعرًا في صبحه ومسائه سمو العز في ذل العبودية، وجمال القرب وصفائه في روحية السجود، وبوحي الدين إلىٰ البشر جميعًا: راعيهم ورعيتهم، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، عظيمهم وحقيرهم لأنهم لأدم، وآدم من تراب، فيتوحد العالم مرة أخرىٰ في نطاق البشرية، ويستشعرون

---

(١) قصدنا من ذكر خاتم الرسل ردًّا علىٰ البهائية الضالة، أو المجوسية المقنعة، أو بمعنىٰ أدق الصوفية في اسمها الجديد، فهي تذكر أن الختم في قوله تعالىٰ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ منصب علىٰ النبوة فحسب لا علىٰ الرسالة، وهذه سفسطة تكون أمام الحق كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

حقيقة المساواة في الجنس والعبودية، في سجود الحياة يستلهم البشر معنىٰ التوحيد وروح المساواة، علىٰ التراب الذي منه خلقوا، ولله الخالق خرت هذه، فماذا يعون ويدركون من جليل المعاني، وأرفع القيم، وهذا هو التراب أصل الجنس البشري يسجد عليه السيد، وبجواره عبده الرقيق وفوقهم رب العالمين يبصر السيد ساجدًا، والعبد ساجدًا، وما للسيد عند الله غير ما لعبده، فالتقوىٰ هي الفيصل، والإيمان هو المميز، أما القيم الوضعية في الحياة فلا تقوِّم الشخصية عند الله، فالله شرع الصلاة ليزكي حقيقة التوحيد في النفوس، ويوصل معناه في أعماق القلوب، فالصلاة يشرق منها علىٰ النفس دائمًا أن الله واحد، وأن الناس كلهم واحد في البشرية والعبودية، ويحدد للصلاة مواقيتها فرضًا واجبًا، ويعيِّن لها قبلة واحدة، فهل نستطيع أن نفهم أن ذلك إيحاء لنا بتوحيد الزمانية والمكانية؟!

فيكون رب واحد، وعالم واحد، وزمان واحد، ومكان واحد، وفي الزكاة والصوم حقيقة التوحيد والمساواة، وفي الحج هنالك في عرفات، ويا للمعنىٰ القدسي الرفيع في عرفات!

نعم، هنالك حيث يتراءىٰ الكون في بساطته الرائعة، وفي فطرته الأولىٰ حيث لا زبرجة، ولا زيف فنون، ولا رقش حضارات زيفاء المعاني، وقد تجرد المسلمون من مفاتن الدنيا زينة وألقابًا، فيتعارف المسلمون معرفة المسلم للمسلم لا الوزير للخفير، ويعرف المسلمون ربهم كما يجب أن يعرف ويوصف ويعبد.

هنالك والكون في فطرته الأولىٰ والبشرية في صبغتها الحقة النابعة من بشرية متساوية وعبودية واحدة: يدرك المسلم ويوقن بعظمة التوحيد، وحقيقة المساواة.

وقفوا علىٰ عرفات؛ لأنه يوحي بالمعرفة الحقة، التي يجب أن يعرفها المسلم، الله واحد، والبشرية واحدة، والكون: هذا الرحب الفسيح النائي الآفاق، إنه للإنسان ليعبد الله فيه، وليزرع الخير، وليشيع في جوانبه الرحمة والسلام، لأنه أسلم وجهه لله.

وهنالك حول بيت الله، تخنس كبرياء البشرية التي نزعتها من حقيقتها أوضار التقاليد، وتتسامىٰ الفضائل التي أراد الله أن تكون للبشرية سراجها في الوجود.

ها هم بثيابهم التي تجردت من شاراتها، ومما يدل علىٰ مقامات أصحابها، يطوفون حول البيت، ذلك البيت الذي قد من حجر، قد من الأرض نفسها التي ذرئ منها الخلق.

ذلك البيت الصغير في بنائه، فلا مصاعد، ولا درج من الرخام، ولا حجاب تمنع الزحام، ولا طبق عن طبق فوق أطباق متعالية، فماذا يفهم المسلم؟

هذا هو بيت الله - والله أكبر - في صغره، وفي حجارته غير المزينة المزركشة، وكلهم حوله طائفون في ذلة وخشوع، فيعلو الفقير بنفسه لأنه عَبْدُ رَبِّ هذا البيت، ويخنس المتكبر المتعجرف حتىٰ يعود إلىٰ حقيقة إنسانيته الأولىٰ التي تتساوىٰ في جنسها مع عبده الرقيق، ويخنس وتنهار كبرياؤه إذ يرىٰ بيت الله في هذه الصورة الجليلة، فيؤمن أن قصوره الشامخة التي تناطح السحاب لم تعطه عند بيت الله إلا مثل ما أعطىٰ الكوخ الحقير صاحبه الفقير.

بل هنا قد يفضله صاحب الكوخ، فإذا العبد وسيده مَنْكِب بجوار مَنْكِب، وجَبْهَة حيال جَبْهَة، وحال تساوي حالًا، عبودية لله وحده، وبشرية كلها من تراب تعبد الله وحده.

وهكذا كل شيء في شريعة الإسلام إنما يفيض روح التوحيد، وتوثيق معنىٰ

المساواة، وهكذا أيضًا كلما اعتصم البشر بالله الواحد؛ كانوا جماعة واحدة يسودها الحب ويرفرف عليها السلام؛ كانوا جماعة موحدة العقائد والمشاعر والأهداف، وكلما لاذوا بأرباب متفرقين تنابزوا واختلفوا وتمزقوا مزقًا، وتفرقوا شيعًا كل شيعة تلعن الأخرىٰ.

ولنبعث رائد الذكرىٰ إلىٰ الجماعة الإسلامية حيث كان ربها المعبود واحدًا هو الله رب العالمين، وحيث كان مصدرها في التشريع واحدًا هو كتاب الله والسنة النبوية المطهرة، ظلت هذه الجماعة في وحدتها وقوتها وظفرها، تثل عروش الطغاة، وتفتح بلاد الظلمة البغاة، حتىٰ لم يمض قرن، إلا وقد رفرفت الراية الإسلامية علىٰ جبال البرنية غربًا، ووراء جدار الصين شرقًا في منعة وعزة وهداية وسماحة، وقد خضع لهم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، ولم يكن المسلمون إلا جماعة قليلة العدد لا تملك من الثروة إلا الإيمان بالله والثقة بوعده.

فانظر كيف تبدل الحال غير الحال، وكيف صار الإسلام الذي يزعمونه اليوم عقيدة الجماعة الإسلامية التي يزعمونها أيضًا.

أَبَقِيَتْ عقيدة المسلمين في ربهم ونبيهم كما يحب الله، وكما بين كتابه ورسوله؟

أَبَقِيَتْ الجماعة الإسلامية والدول الإسلامية كما كانت في عهد نبيه وعهد أصحابه؟

إخال أيها السادة: أننا لسنا بحاجة إلىٰ هذا السؤال، فكل يعلم الجواب، وكل يجب أن ينفطر منه القلب، وتذهب نفسه حسرات.

لم يبق من المسلمين إلا جماعة تعتصم بالكتاب والسنة، أولئك الذين صدق فيهم قول رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم**

من خالفهم حتىٰ تقوم الساعة»(١).

أما البقايا! أما الأدعياء الذين ينتسبون إلىٰ الإسلام بشهادة الميلاد! فهم مَنْ صدق فيهم قول رب العالمين: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾(٢).

ما للمسلمين صاروا اليوم في هوان ومذلة؟! وهم الذين من قبل ذل لهم الملوك؟

إنهم نسوا ربهم فنسيهم، و﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

إن المسلمين تمجسوا وتهودوا وتنصروا، وما نحب أن يسلم غير المسلمين أكثر مما نحب أن يؤمن المسلمون.

إن المسلمين كاد لهم عدوهم حتىٰ مكنوا الخنجر من إصابتهم في الصميم.

إنهم شربوا سمًّا وهم يحسبونه عسلًا فيه شفاء لهم.

وإليكم أيها السادة قصة رهيبة من الكيد للإسلام:

قصة الكيد للإسلام:

لقد كان النصر الذي لقيه الإسلام منذ بدء الدعوة يؤرث الأحقاد في نفوس أعداء هذه الرسالة العالمية، فحوربت الدعوة، وحورب رسولها، من مشركي مكة، وكان الإفك المفترىٰ أحد أسلحة هذه الحرب الشعواء، فلما قويت شوكته بالمدينة كان النفاق أمضىٰ سلاح حورب به الإسلام ورسوله، ثم مات الرسول - ولكن الإسلام لم يمت - فنكص من نكص، وارتد من ارتد، غير أن أبا بكر أعلن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الإمارة، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) يقصد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وقوع كثير من المسلمين في شرك القبور والطواف بالأضرحة.

كلمة الله وجعلها هي العليا بقدرة الله وسابق وعده، فسلم أو أسلم المرتدون طوعًا أو كرهًا، وأيقن من يكيدون للدين أن في العرين أسودًا، وأن في السويداء رجالًا، وأن دين الإسلام ليس دين شخص حتىٰ يفنىٰ بفنائه، أو يموت بموته، لم يكن الإسلام دينًا اخترعه محمد ﷺ، وإنما دين رب محمد ﷺ.

وجاء عمر؛ فثل عروش الأكاسرة، وأدال من ملك القياصرة، وأسلم من الفرس من أسلم، وادعىٰ الإسلام منهم من ادعاه، وهنا تلتهب القلوب للدين أحقادًا، وتتلظىٰ نقمة وبغضاءً، ولم لا؟ فعمر العربي البدوي ما كان ملكًا ولا ابن ملك، ولا هو من سلالة الملوك، ولكنه - أي عمر بن الخطاب - بإيمانه بالله يطيح بعرش كسرىٰ، ويفل غارب ملك الروم، فهل يشكن الفرس عباد الملوك أبناء الآلهة - كما يزعمون - علىٰ هذا البدوي ودينه؟

إن الإسلام في يسره وسماحته، وسمو شمائله لم ينزع من كل فارسي أمشاج مجوسيته، ولم يهدهد من حمية العصبية الفارسية النزاعة إلىٰ العبودية لكل ما هو فارسي، وما كانت عصبية الفرس قبلية كالعرب قبل محمد ﷺ، بل كانت عصبيتهم للأمة، إذا كان الفرس أمة، ودولة تحمي هذه الأمة، وظلوا لهذه الدولة خانعين في ولاء ومحبة أحقابًا مترامية، وكلما كانت الأمة كذلك كانت عصبيتها للأمة أقوىٰ وأشد من العصبية للقبيلة، وقد عز علىٰ هؤلاء الفرس أن يطيح أولئك البدو - الذين كان بعضهم يدين لهم بالطاعة - بمجد دولتهم، وأن يكونوا لهم سادة، بعد أن كانوا لهم تبعًا، فراحوا يعملون ما سنحت لهم الفرصة، وأمكنتهم الغِرة علىٰ أن يعود لهم تاج الملك وصولجانه، وأن يزاولوا طقوس دينهم متأججة نيرانه، وكما يقول شوقي: «إن المصائب يجمعن المصابينا» والأحقاد يجمعها

الغرض المشترك.

فقد تجمع أعداء الدين من كل صقع وملة، ويؤرث الفرس والسهود فيهم الحنق والغيظ، فكادوا لهذه الملة كثيرًا.

كانت نتيجة مقتل عمر عن مؤامرة دبرها الهرمزان الفارسي، وخب فيها كعب الأحبار اليهودي(١) ووضع... وقتل عمر، ولكن ما قتل الإسلام بل بقي عزيز

---

(١) هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، من آل ذي رُعين، ويقال: من ذي الكلاع، ثم من بني مَيتم اليماني، من مسلمة أهل الكتاب، فقد كان علىٰ الديانة اليهودية، وأدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم بعد وفاته.

واختلف في زمن إسلامه: فقال الحافظ جمال الدين المزي في تهذيب الكمال: (أسلم في خلافة أبي بكر الصدّيق، ويقال: في خلافة عمر بن الخطاب)، وذكر الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: أنه قدم المدينة من اليمن في أيام عمر، فجالس أصحاب محمد ﷺ، فكان يحدّثهم عن الكتب الإسرائيلية، وعجائبها، ويأخذ السنن عن الصحابة، ورجّح الحافظ ابن حجر في الإصابة أنَّ إسلامه كان في خلافة عمر.

حدّث عن: عمر، وصهيب، وغير واحد، وحدّث عنه من الصحابة: أبو هريرة، ومعاوية، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وخريم بن فاتك، ومعاذ بن أنس، وهذا من قبيل رواية الصحابي عن التابعي، والذي وصفه الذهبي بأنه نادر عزيز.

وسأل العباس بن عبد المطلب كعبًا: ما منعك أن تُسلم علىٰ عهد النبي ﷺ، وأبي بكر حتىٰ أسلمت الآن علىٰ عهد عمر؟ فقال كعب: إنَّ أبي كتب لي كتابًا من التوراة ودفعه إليَّ، وقال: اعمل بهذا، وختم علىٰ سائر كتبه، وأخذ عليَّ بحق الوالد علىٰ ولده أَلَّا أفض =

الجانب، صعب المراس، مستقيم النهج، وإن كان قد فُتِحَ للشيطان باب يقذف منه بالفتن الشعواء في الجماعة الإسلامية.

وَبُلَّ غليل الفرس قليلًا، ونهنه من سورتهم مقتل عمر، وما نتج عنه من فتن،

=

الخاتم، فلما كان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أر بأسًا، قالت لي نفسي: لعل أباك غَيَّبَ عنك علمًا كتمك فلو قرأته. ففضضت الخاتم، فقرأته، فوجدت فيه صفة محمد ﷺ وأمته، فجئت الآن مسلمًا.

وسمي بـ (كعب الأحبار)، أو (كعب الحبر) لكثرة علمه.

وفي تاريخ دمشق أنَّ ابن سيرين كره أن يقول: (كعب الأحبار)، ولكن (كعب المسلم)، وذلك باعتبار أنَّ لفظة (الأحبار) وصف ينصرف إلىٰ علماء اليهود، كـ (الرهبان) وصف ينصرف لعلماء النصارىٰ، فلذا كره ذلك.

وسكن بالشام بأخرة، وكان يغزو مع الصحابة، كمعاوية بن أبي سفيان وأبي الدرداء، وشداد بن أوس، والمقداد بن الأسود لدىٰ غزوهم قبرص.

وتوفي بحمص ذاهبًا للغزو في أواخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٣٢ للهجرة، أو ٣٣، أو ٣٤، وعلىٰ الأول الأكثر كما قال السخاوي. وقد بلغ مئة سنة وأربع سنين.

[(حلية الأولياء) لأبي نعيم (٥/ ٣٦٤)، (تهذيب الأسماء واللغات) للنووي (٢/ ٦٨، ٦٩)، (تاريخ دمشق) لابن عساكر (/ ١٥١-١٧٦)، (تهذيب الكمال) للمزّي (٢٤/ ١٨٩-١٩٣)، (سير أعلام النبلاء) (٣/ ٤٨٩-٤٩٤)، (تذكرة الحفاظ) للذهبي (١/ ٤٩)، الطبعة الهندية، ولمزيد فائدة راجع رسالة مسلمو أهل الكتاب من اليهود في صدر الإسلام الأول والطعون التي وجهت إليهم: (عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار نموذجان) د/ محمد بن علي بن صالح الغامدي].(ض).

وصاروا يتحينون الفرصة المواتية، ولكنهم وجدوا الجماعة الإسلامية ما تزال قوية الشوكة، كلما تصدعت رأب القرآن صدعها فاندسوا إذن وسط هذه الجماعة، يصدعونها، ويوسعون الخرق في سفينتها علىٰ اليم الثائر، فتشيع كثير منهم زورًا وبهتانًا لآل البيت، لأن للحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيهم رحمًا، ووجدوا من اليهودي الحاقد الموتور عبد الله بن سبإ، الملقب بابن السوداء شيطانًا يقودهم بالتدبير الماكر، والحيلة الخلوب، وما كان الدفاع عن النبي ﷺ أو علي أو بنيه لهم غاية، وإنما كان هدم الدولة الإسلامية، وتمزيق أوصالها، هو غايتهم المقصودة، وأمنيتهم المبتغاة.

فلما قامت الدولة الأموية، وكانت عربية في كل مقوماتها وغاياتها، أفرطت في تعصبها للعرب، وعبرت عن غير العرب بكلمة «الموالي»، وكان لهذه الدولة يقظة الأسد يخشىٰ من الذئاب علىٰ عرينه، فبطشت بكل من بدرت منه أية بادرة للتنكر لهذه الدولة أو النيل منها، وخادع الفرس الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَخُدِعَ بهم، فَقُتِلَ، وإني لأقولها: ما قتله غير الفرس، الذين وجدوها فرصة، وأقاموا مأتمًا علىٰ مر السنين استثاروا به العواطف، ووقعوا علىٰ أوتار القلوب الولهىٰ لحنًا دامي الشجون، غير أن الأمويين صمدوا لهذه العواطف المتأججة، وهذه المشاعر الفائرة، فخنس الفرس في خفاء وتكتم، وهبوا يكيدون للدولة الأموية تحت دعوىٰ التشيع، ودعوىٰ الأخذ بثأر الحسين، وساعدهم علىٰ ذلك استكانة الخلفاء من بني أمية في أواخر أيامهم، واستنامتهم.

فوهىٰ سلطان الأمويين، وتضرمت النار، وزادها الفرس ضرامًا، فإذا الفارسي أبو مسلم الخراساني يطيح بعرش الأمويين، وإذا به يقيم علىٰ أسنة

الرماح، وغوارب السيوف هذه الدولة العباسية.

غير أن قيام هذه الدولة لم ينقع لهم غلة، ولم يبل أوامًا، إذ كان الفرس يريدونها حكومة فارسية الجنان واللسان والسلطان، فراحوا مرة أخرىٰ يأتمرون بالدولة التي أقاموها، بل بدأ ذلك التآمر ولم يستقر الملك - إلا قليلًا - للعباسيين، وتنبه كثير من خلفاء العباسيين لهم فنكلوا بهم.

فقتل منهم أبو عبد الله السفاح من قتل، وقتل منهم المهدي من قتل، وفتك هارون بالبرامكة الذين يقول عنهم أحد الشعراء:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك

ولما لم يغنهم فتيلًا كيدهم المستمر للدولة، وعجزوا عن مقاومتها بالسيف، تجمعت قواهم للكيد للإسلام، وليس معنىٰ ذلك أنهم لم يكيدوا للدين قبل ذلك، بل معناه إنهم ركزوا جهودهم في هذه الناحية، بعد أن كانت موزعة علىٰ الكيد للدولة وللإسلام.

تجمعوا إذن للكيد للإسلام، إذ هو الأس المتين، والركن الركين، والعماد القوي الذي ترتكز عليه الدولة، والجماعة الإسلامية.

وفي تاريخ الثورات الدينية أو السياسية لا يستطيع المؤرخ أن يحكم متىٰ بدأت، فلكل ثورة عناصر تتجمع في القلوب، ثم تكون خطة يحكيها اللسان، ثم يعقب ذلك التنفيذ، غير أن المؤرخ يستطيع أن يحكم متىٰ ظهرت سافرة.

ونحن لهذا نقول: إن الكيد للإسلام اشتد أواره في العصر العباسي، وإن كان في القلوب له مكان قبل ذلك.

ذهب الفرس ومن شايعهم من الذين وترهم الإسلام يبثون في الأفكار

تعاليمهم الدينية الفاسدة في ختل ودهاء، ويشككون في الدين بما يثيرون من جدل وسفسطة حول المتشابه من آي القرآن، وروائع السنة، ويصورون معاني الآيات بما ورثوه من مجوسية وسواها، فيقولون مثلًا عن قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: إن الوجود له إله اسمه إله النور.

وهذا كما كان في المانوية، ويقولون عن الشيطان: إنه إله الظلمة، لأنه مصدر الشر. كما في المانوية تمامًا.

فقد وصف القرآن الله بأنه النور، ومصدر الخير والبركة، ووصف الشيطان بأنه مصدر الشر كله، وهكذا يصورون، وهكذا يكيدون.

وكل مسلم لم يخلص إسلامه من ميراث العقيدة التي يعتنقها، وكل إنسان ادعىٰ الإسلام ولم يطهر من الريب قلبه، فإنما يصور الدين الجديد حسب ما كان يفهم ويتعبد به من قبل، ولهذا افتتن بالفرس من افتتن، وهوىٰ إلىٰ حضيضهم من هوىٰ، وقد ساعدهم علىٰ ذلك أسباب منها:

فتور في حرارة الإيمان، عجمة في الفكر واللسان، بعد عن السنن والقرآن.

فالمؤمن إذا فترت حرارة إيمانه استعبدته وسوسة شيطانه، وقَبِلَ الشك علىٰ أنه طمأنينة اليقين، وأمسىٰ من السهل علىٰ كل مؤثر خارجي، سواء أكان ماديًّا أو معنويًّا أن ينتزعه من حقيقة إيمانه الأول، ويضع له علىٰ المحراب صورة الهيكل أو البيعة، وعلىٰ المسجد صور الكنيسة أو المعبد، فيرد علىٰ أعقابه كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وإذا استعجم المسلم في فكره ولسانه لم يتفهم القرآن العربي المبين، ولم يَعِ مقاصده، ولم يتبين غاياته، بل تصوره له عجمة التفكير واللسان في صور شتىٰ، ومعان متباينة فيها كل شيء إلا حقيقة القرآن وبيان السنة، وإذا انحرف

المسلم عن كتاب ربه وسنة نبيه قيد أنملة اجتالته الشياطين فكان من الغاوين.

وشاعت في الدولة الزندقة والريب والبدع، ويصور لنا أحمد بك أمين(١) هذا بقوله: «وكان من الطبيعي أن يكون في هذا العصر زنادقة دعاهم إلىٰ الزندقة دواع مختلفة: فقوم دعاهم إليها دين ألفوه قديمًا، وهو دين المجوسية، وكان لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف من السلف، ولكنهم رأوا جاهًا عريضًا، ومناصب عزيزة لا يستطيعون الوصول إليها إلا أن يسلموا، فأسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، واتخذوا الإسلام ثيابًا ظاهرية، يخلعونها إذا دخلوا إلىٰ أهليهم، وهم إذا أمكنتهم الفرصة كادوا للإسلام والعرب والمذاهب الدينية»(٢).

وكان من ألد أعداء الإسلام حينئذ مكرًا وخديعة ونفاقًا هم الفرس المانويون(٣)،

---

(١) ولد أحمد أمين سنة ١٨٨٦ بالقاهرة، والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم الأزهر، ثم بمدرسة القضاء الشرعي التي تخرج منها، ثم عين مدرسًا أستاذًا بكلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم عميدًا لها.

كما عين بعد ذلك مستشارًا للثقافة، فمستشارًا لوزارة التربية والتعليم، وساهم في إنشاء مجلتي: «الرسالة»، و«الثقافة».

له العديد من المؤلفات، منها: «فجر الإسلام»، و«ضحىٰ الإسلام»، و«ظُهر الإسلام». توفي سنة ١٩٥٤.(ض).

(٢) ضِحىٰ الإسلام طـ(٤)، (حـ ١/ صـ ١٦١).

(٣) نسبة إلىٰ ماني بن ماني ولد ببابل سنة ٢١٥، أو سنة ٢١٦م وقد ظهر في زمان سابور بن آدشير، ثم ألف دينًا ادعاه فآمن به هرمز فكان سببًا في اتباع الكثير له، ولما جاء بهرام لم يطب نفسًا بتعاليم ماني، وخشي إن هي أصبحت عقيدة الفرس عامة أن تقوض أركان =

ولهذا يذكر الطبري (١٠/ ٤٢) أن الخليفة المهدي وصىٰ ابنه الهادي هذه الوصية: «يا

=

دولته بل العالم كله لما في تعاليم ماني من ضعف ويأس وتشاؤم ودعوة إلىٰ إبادة النوع الإنساني كله، وتلك تعاليم بالغة الخطورة علىٰ دولة قوية عزيزة الجانب قوية الشوكة؛ فدبر بهرام مؤامرة لقتله فدعاه إليه وأوحىٰ إليه الموبذان - قاضي القضاة - بمناظرته، فقيل له: أأنت القائل بتحريم النكاح حتىٰ يبيد النسل ويبيد العالم فيعود إلىٰ علته الأولىٰ؟ فأجاب: نعم، إذ يجب أن يعان النور علىٰ خلاصه من امتزاجه بغيره، ولن يكون هذا إلا بقطع النسل. فقال الموبذان: أرىٰ أن يعجل لك الخلاص، لأنا من أنصارك ونحب أن تكون قدوتنا. فبده ماني ثم أمر بهرام فَقُتِلَ هو وجماعة من أصحابه، ولكن توارث آخرون الإمامة من بعده وجعلوا بابل ومن بعدها سمرقند مستقرًّا للإمامة، وظلوا يغالبون حتىٰ قوي النفوذ الفارسي في الأمة الإسلامية فاستعلنوا بدعوتهم في الدولة العباسية؛ فانتشرت في أوربا حتىٰ فرنسا الجنوبية علىٰ يد الرومان الذين نزحوا من فارس إلىٰ أوربا حتىٰ عمت أجزاء الإمبراطورية الرومانية، ويقال: إن سانت أوغسطين كان مانويًّا قبل اعتناقه للنصرانية، وديانة ماني ديانة ثنوية مادية، تزعم أن العالم له إلهان: إله النور، وإله الظلمة، وللنور أبدان هي: النار والنور والريح والماء، وله روح واحدة هي: النسيم، والأرواح الإنسانية أجزاء من روح إله النور. أما إله الظلمة فله أبدان أربعة: الحريق والظلمة والضباب والسموم، وله روح واحدة هي: الدخان. غير أن ماني أضاف صفة الخلق إلىٰ النور، ولكنه ليس كالخلق المفهوم، بل هو امتزاج، وكان عنده صلوات أربع في اليوم أو اثنتا عشرة سجدة، وصيام قدره: سبعة أيام من كل شهر، ونهىٰ عن الزواج ليبيد العالم فيتخلص النور من الظلام. هذا ملخص بسيط لماني ومانويته التي كان لها أثر كبير في عقائد الكثير من الصوفية.

بني، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يريد المانويين - فإنها فرقة تدعو الناس إلىٰ ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثم تخرجها من هذا إلىٰ عبادة اثنين: أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تتيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم إلىٰ هداية النور، فارقع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلىٰ الله لا شريك له».

فتأملوا أيها السادة كيف كان الكيد، وكيف كانت الخديعة المقنعة بالفضائل في ذلك الكيد، وما زال الصوفية من الدراويش يأبون قتل الهوام أيضًا يعتبرونها حملة إلهية جردها لتأكل رزقها من لحوم الدراويش - وتعالىٰ الله رب العالمين -، وكان الفاجر العفيف التلمساني يبيح نكاح الأخوات والأمهات والبنات، فهل يتأمل المؤمن الرشيد فيفر إلىٰ الله من هذه العقائد الزائفة الزائغة؟

وهل يغفل المسلمون عن تلك الثورة الدامية التي أضرمها المقنع الخرساني(١)

---

(١) **قال ابن خلكان:** المقنع الخراساني قيل: اسمه عطاء. وقيل: حكيم. والأول أشهر، وكان أولًا قصارًا، ثم ادعىٰ الربوبية، مع أنه كان أعور قبيح المنظر، وكان يتخذ له وجهًا من ذهب، واتبعه علىٰ جهالته خلق كثير من الجهلة، وكان يري الناس قمرًا يرىٰ من مسيرة شهرين، ثم يغيب، فعظم اعتقادهم فيه، ومنعوه بالسلاح، وكان يزعم - لعنه الله، وتعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة، ثم في نوح، ثم في الأنبياء واحدًا واحدًا، ثم تحول إلىٰ أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إليه، ولما حاصره المسلمون في قلعته التي كان جددها بناحية كش مما وراء النهر، ويقال لها: سنام. سقىٰ نساءه وأهله سمًّا، وتحسىٰ هو أيضًا منه، فماتوا كلهم - لعنهم الله =

- وهو من قرية مرو - في عهد المهدي، مدعيًا أنه يحيي الموتىٰ ويعلم الغيب، وأنه أحد التجسدات التي تتجسدها الروح القدس علىٰ أدوار متكررة، وأنه صورة من الصور التي تجلت فيها الروح القدس في آدم وجميع الأنبياء، أو كما يقول البغدادي: كان يزعم أنه الإله تصور في كل زمان بصورة مخصوصة(١).

كذلك يقول المناوي في كتابه الكواكب الدرية: إن من كرامات الأولياء إحياء الميت. وكذلك يقول ابن عربي في كتابه الفصوص: إن الله يظهر في صور متعاقبة فهو: أبو السعود الجارحي، وهو عجل بني إسرائيل. وكذلك تقول البهائية! ولا ننسىٰ أنهم فرس!.

وهل ينسىٰ المسلمون تلك الثورة الرهيبة التي أثارها حمدان قرمط وعبد الله بن ميمون القداح في أيام المأمون.

وهم واضعو المذهب الباطني أو بمعنًىٰ آخر: الإسماعيليةُ في الهند، الفاطميةُ في مصر، وقد انتشر هذا المذهب في زمن المعتصم وقويت شوكتهم جدًّا، ومن هؤلاء سعيد الجنابي الذي دخل مكة في ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وقتل فيها ثلاثة عشر ألفًا وكان يقول:

أنا الله، وبالله أنا يخلق الخلق، وأفنيهم أنا

=

أجمعين - واستحوذ المسلمون علىٰ حواصله وأمواله كلها سنة ١٦٣هـ [البداية والنهاية: (١٣/ ٥١٩، ٥٢٠)].(ض).

(١) انظر كتاب مختصر الفرق بين الفرق، ص(١٣٦)، وكتاب تاريخ الحاكم بأمر الله، للأستاذ عنان ص (٧٥)، وكتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص (٢٣٦).

وينسب عبد القاهر البغدادي هذا العمل إلىٰ سليمان بن الحسن فيقول عنه: (وتعرض للحجاج وأسرف في القتل منهم، ثم دخل مكة وقتل من كان في الطواف، وأغار علىٰ أستار الكعبة وطرح الجيف في بئر زمزم.

وضرب واحد منهم الحجر الأسود، وقال: كم تعبد في الأرض وآل محمد لا يظهرون؟

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل مكة أيضًا وقتل الطائفين حول البيت، وقيل: إنه قتل ثلاثة آلاف، وأخذ منها سبعمائة بكر، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلىٰ البحرين)(١).

ولئن كان الحنادي والبغدادي اختلفا في اسم من فعل ذلك إلا أنهما اتفقا علىٰ الوقائع وتحديد تاريخها، بل وكيفيتها، ونحن في بحثنا لا يهمنا غير ذلك.

ومنهم عبيد الله بن الحسين القيرواني جد ملوك الدولة العبيدية بمصر، وقد كتب رسالة إلىٰ سليمان بن الحسن القرمطي الذي اقتلع الحجر الأسود سنة ٣١٧ هـ، يقول له فيها: أوصيك بتشكيك الناس في التوراة والإنجيل والقرآن، فإنه أعظم عون لك علىٰ القول بقدوم العالم، وأوصيت لك بأن تعرف مخاريق الأنبياء والأمور التي ناقضوا فيها، كما قال عيسىٰ لليهود: أنا لا أرفع شيئًا من شريعتكم، ولا أنسخ، ثم رفع السبت ووضع بدله الأحد، وغير قبلة موسىٰ، فلما عثر اليهود منه علىٰ هذه المناقضة قتلوه، وينبغي أن لا تكون كصاحب الأمة المنكوسة لما سألوه عن الروح لم يدر ما يقول فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ

---

(١) ص (١٧٦) من كتاب مختصر الفرق بين الفرق، بتحقيق فيليب حتي.

رَبِّي﴾ وهم قبلوا منه ذلك؛ وينبغي أن لا تكون كموسىٰ ادعىٰ ما ادعاه، ولم يكن له برهان سوىٰ المخرقة وحيل الشعبذة، وذلك الْمُحِقُّ في زمانه قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ثم قال: (وأعجب من هذا في دينهم: أن الواحد منهم تكون له ابنة حسناء يحرمها علىٰ نفسه ويبيحها للأجنبي، ولو كان له عقل لعلم أنه أولىٰ بها من الرجل الأجنبي، ولكنهم قوم خدعهم رجل بشيء لا يكون أبدًا، خوفهم بالقيامة والنار، ومناهم بالجنة، واستعبدهم لهذا السبب، فكيف لم يخف في نفسه مما خوفهم به حين استعبدهم في العاجل ولم يبال به»(١).

أرأيت، أن يقول عن فرعون أنه محق في قوله، وعن موسىٰ أنه ممخرق ومشعوذ؟

كذلك يقول ابن عربي في الفصوص عن فرعون! ثم استمع إلىٰ أي حد وصلت الإباحية حيث يقول أحد شعراء الباطنية:

خذي الدف يا هذه واضربي — وغني هزاريك ثم اطربي
تولىٰ نبي بني هاشم — وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضىٰ شرعة — وهذي شرائع هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة — وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي — وإن صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا — ولا زورة القبر في يثرب

---

(١) ص (٨٥) من كتاب التبصير في الدين، لأبي المظفر الإسفراييني نشر عزت العطار، ص (١٧٩) من كتاب مختصر الفرق بين الفرق، نشر وتحقيق فيليب حتي.

ولا تمنعي نفسك المعرسين من أقربي ومن أجنبي
فكيف أبحت لهذا الغريب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن حاطه ورواه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء حلالًا فقدست من مذهب(١)

أرأيت العربدة الصارخة الشهوات، والفجور العارم النزوات؟ وهل ترىٰ شبهًا قويًّا بين هذا وبين ما يقوله الصوفية من رفع التكاليف؟

ويقول البغدادي عن هذه الطائفة: «ثم إن الباطنية احتالت لتأويل أحكام الشريعة علىٰ وجوه تؤدي إلىٰ رفع الشريعة وإلىٰ مثل أحكام المجوس، فأباحوا لأتباعهم نكاح الأمهات والأخوات وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات، حتىٰ إن الغلام الذي ظهر منهم بالبحرين سن لأتباعه اللواط»(٢).

ثم ألا ترىٰ شبهًا قويًّا بين تأويل الباطنية وتأويل الصوفية؟

أترىٰ إلىٰ إباحة ما يفعل قوم لوط أنه يشبه ما يفعله كثير من الصوفية، حتىٰ لقد عد الشعراني تلك الجريمة الشنعاء من كرامات سيده أبي جودة؟! فكيف كان يتحايل هؤلاء الباطنية علىٰ تأويل الشرائع، وعلىٰ خداع البسطاء من الجماعة الإسلامية وأحيانًا ذوي السلطان؟

اسمع إلىٰ أبي المظفر الإسفرايني يقول في كتابه التبصير ص (٨٦): «واعلم أن أول ما يحتال به هؤلاء علىٰ السلاطين والعوام الذين لا خبرة لهم في العلوم

---

(١) ص(٣١) من كتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادي.

(٢) المرجع السابق ص (١٧٥).

تقبيحهم العلماء في أعين العوام يقولون للواحد منهم: إن علماءكم لا يعرفون شيئًا، ولو شئتم لجربتموهم وعرفتم من حالهم ما يقولون، سلوهم لم وجب الغسل للوجه في الوضوء، والحدث خرج من موضع آخر؟

وأي حكمة وأي عاقل يستحسن هذا؟ ولم وجب غسل جميع البدن من قطرة مني خرجت منه ولم يجب علىٰ كثير من الحدث والبول يخرج منه إلا غسل أعضاء من البدن؟ قالوا: وهذا بالعكس أولىٰ.

واسألوهم لِمَ كانت صلاة المغرب ثلاث ركعات، وصلاة الصبح ركعتين كل واحد منهما في طرف من طرفي النهار؟ ولم كان الركوع واحدًا والسجود اثنين؟

ولِمَ لَمْ يقطع فرج الزاني وتقطع يد السارق؟ وهما جميعًا آلة خيانة؟

واسألوهم لم كان اللسان واحدًا، والأذن اثنين؟ والذكر واحدًا والخصية اثنين، ولم كانت الأهداب ثابتة علىٰ جفن الإنسان؟ وإذا ظفروا بواحد من السلاطين والمحتسبين قالوا له: وضعت هذه الشريعة للحمير والعوام وأنتم من جملة الخواص، ينبغي أن يكون لدينك خاصية تخالف دينهم.

ويقولون: إن النبي لم يكن نبيًّا ولا رسولًا، ولكنه كان حكيمًا أراد أن يستعبد العوام فكلفهم هذه التكاليف، ولا بد للخواص أن يتميزوا عنهم ولا ينقادوا لشيء لا أصل له».

أرأيت أيها المسلم إلىٰ هؤلاء الذين بنوا الأزهر، وحكموا مصر باسم فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي منهم بريئة وسموا أنفسهم مسلمين؟

ويقول عنهم بعض المؤرخين - بل بعض الذين ما يزال في قلوبهم حب المجوسية والعبودية لغير الله -: إنهم كانوا أجل من حكم مصر ونشر فيها روحية

الإسلام، وحققوا للدولة الإسلامية عظمتها الذاتية في عهدهم!.

وما يزال يدرس عهدهم في الأزهر ومدارس الحكومة وبعض المجلات الإسلامية علىٰ أنه يمثل الحقبة الزاهرة من الإسلام.

ها نحن نقلنا الأدلة القطعية علىٰ مجوسية هؤلاء الفاطميين وسواهم ممن مهدوا لهم من القرامطة، وها نحن ننقل مرة أخرىٰ عن رجل دخل فيهم وعاشرهم مدة من الزمن ليعرف حقائقهم، ثم خرج يذكر ما خفي من أمرهم ذلك الرجل هو محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي.

يقول ذلك الملك المحقق عن بينة وثقة وعلم مبينًا مكائدهم وخداعهم للمسلمين: «فأول ما أشهد به وأشرحه وأبينه للمسلمين وأوضحه أن له(١) نوابًا يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المكلبين تشبيهًا لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل وينقبضون عن كل عاقل، ويلبسون علىٰ كل جاهل بكلمة حق يراد بها باطل، يحضونه علىٰ شرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه، فيقيم أكثر من سنة يمنعون به وينظرون صبره ويتصفحون أمره، ويخدعونه بروايات عن النبي ﷺ محرفة وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن علىٰ غير وجهه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والإقبال والإعجاب بجميع ما يعلمونه والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قد قنع به العوام من الظاهر، وتدبر القرآن ورموزه واعرف مثله وممثوله، واعرف معاني الصلاة والطهارة،

---

(١) يقصد رجلًا من الباطنية اسمه (الصليحي).

وما روي عن النبي ﷺ بالرموز والإشارة دون التصريح في ذلك بالعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لممثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها وقف علىٰ باطنها ومعانيها فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه. فيقول: عم أسأل؟

فيقول: قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضًا فالصلاة والزكاة لهما باطن؛ لأن الصلاة صلاتان والزكاة زكاتان والصوم صومان والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن، يدل علىٰ ذلك: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، و﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ألا ترىٰ أن البيضة لها ظاهر وباطن، فالظاهر ما تساوىٰ به الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل علىٰ ولاية محمد وعليٍّ صلىٰ الله عليهما؛ لأنهما سبعة أحرف، فالمعني بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتىٰ الزكاة، فيوهمون علىٰ من لا يعرفه لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي ﷺ، فينخدع هذا من المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة؛ لأنه مذهب الراحة والإباحة، يريحهم مما تلزمهم الشرائع به من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا، قالوا له: قرب قربانًا» هذا نص الحمادي، ثم يزعم له الداعي كما ذكر الحمادي.

ولنلخصه نحن بتفسير الصوم بكتمان الأئمة، لأن الله يقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] فالصوم معناه الكتمان.

فمعنىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] هو: من شهد منكم الإمام فليكتم أمره!

ومعنىٰ الطهارة من الحدث هي طهارة القلب فحسب، ويفسرون الجنة بأنها في الدنيا بمعنىٰ تناول كل زينة، وتناول كل امرأة، وهتك كل ممنعة العرض(١).

وسنذكر بعضًا من تأويلات الصوفية - أو الباطنية إن شئت، أو البهائية إن أردت، فهي تظهر في كل عصر باسم خاص - ما تراه قريبًا جدًّا مما نقلناه، بل هو هو لأن المستنقع المنتن الذي يستمدون منه واحد، وما هذه الفرق التي نشأت في الدولة الإسلامية إلا معاول كانت غايتها هدم الإسلام ودولته.

ومن عجب أن نرىٰ أكثر هذه الفرق يتزعمها فرس، ومن عجب نرىٰ كل فرقة تزعم أن زعيمها حلت فيه روح الله، حتىٰ أصحاب أبي مسلم الخراساني، وانظر في ذلك كتب الفرق، مثل: الملل والنحل، والفرق بين الفرق، وكتاب التبصير، ففيها ما يروع كل مسلم، وفيها ما يثبت أن الصوفية امتداد لهذه الفرق التي نشأت في الجماعة الإسلامية متحالفة علىٰ الكيد له.

وإني لأنادي بالصوت مدويًّا عاليًا غير هياب ولا وجل أن الصوفية هي الباطنية التي نشأت لتكيد للإسلام في سماحته ويسره، ونبل سجاياه وحسن إكرامه لهؤلاء المجرمين.

---

(١) ص(١٣، ١٤، ١٥) من كتاب كشف أسرار الباطنية للحمادي.

إن الإسلام ألقىٰ ظلال رعايته الوريفة علىٰ أولئك الباطنية، فاستغلوا كرم أهله، أو استغلوا نوم أهله عنه، وراحوا يثيرون الفتن دامية ملتهبة الأحقاد فوارة الضغن لهذا الدين وأهله، فإذا بهم يضمون إليهم أهل هذا الدين ممن ولدوا من آباء مسلمين يكيدون معهم للدين، بل يقودون ثورة هؤلاء علىٰ الدين فنجد أسماء إسلامية، وقلوبًا مجوسية، وأفكارًا مانوية، وعقائد وثنية.

ولقد خدع بهذه الأسماء الإسلامية الطنانة كثير ممن يرون هؤلاء حجيج الإسلام أو المحبين للإسلام.

بل لقد أسفر هذا الكيد عن وجهه الكالح إلىٰ درجة أن يقول المتوكلي: وكان من ندماء المتوكل مفتخرًا بفارسيته متوعدًا العرب بسلب الملك منهم:

أنا ابن الأكارم من نسل جم(١)   وحائز إرث ملوك العجم
ومحيي الذي باد من عزهم   وعفىٰ عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة   فمن نام عن حقهم لم أنم
معي علم الكابيان(٢) الذي   به أرتجي أن أسود الأمم
فقل لبني هاشم أجمعين   هلموا إلىٰ الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح   طعنًا وضربًا، بسيف خذم
وأولاكم الملك آباؤنا   فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلىٰ أرضكم بالحجاز   لأكل الضباب، ورعي الغنم

---

(١) يريد بجم جمشيد ملك الفرس.

(٢) نسبة إلىٰ كابة وهو حداد فارسي رفع علم الثورة.

فإني سأعلو سرير الملوك   بحد الحسام، وحرف القلم[١]

بل إن البرامكة وهم سادة الدولة العباسية في عهد الرشيد - يذكر عنهم ابن النديم أنهم كانوا زنادقة وبالتالي يكونون ممن يكيد للإسلام، فيقول في الفهرست ص (٤٧٣): «قيل إن البرامكة بأسرها كانت زنادقة إلا محمد بن خالد بن برمك».

وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقًا، واعترف بذلك فقتله المهدي، ولقد ذكر الأصمعي عن البرامكة:

إذ ذكر الشرك في مجلس   أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية   أتوا بالأحاديث عن مزدك

وغير بعيد عن الأذهان فتك الرشيد بهم. والأفشين قائد قواد جيوش المعتصم كان مانويًّا زنديقًا.

ويقول عنه بشار:

ما زال سر الكفر بين ضلوعه   حتىٰ اصطلىٰ سر الزناد الواري

بل كان من العرب الهاشميين ممن تزندق تأثرًا بمبدإ الفرس.

وما بعجيب ذلك فتلك سنة واقعة دائمًا، فالآن ترىٰ البهائي يزعم أنه مسلم. ويصلي ويسلم علىٰ رسول الله، وفي طوايا نفسه ما يبغض إنسانًا كما يبغض محمدًا ﷺ.

فهذا المسلم الذي زندقته البهائية ومالت به عن دينه القويم يكون أشد خطرًا علىٰ الدين من غيره، كذلك كان الفرس يصمعون بالمسلمين من عرب وغيرهم،

---

[١] نقل هذه الأبيات أحمد أمين بك عن معجم الأدباء ص (٦٧) في كتابه ضحىٰ الإسلام ح (١) ط (٤).

وبهذا أفلح الفرس فمزقوا المسلمين شر ممزق، ذلكم عرض سريع لقصة الكيد للإسلام الذي قدم الخير فجوزي بالشر وأرادها سلمًا، فاصطلاها حربًا، وبث القوة والعزة في أهله فأبوا إلا أن يكونوا ضعفاء أذلة، إن الإسلام في سمو عقيدته وصفاء روحانيته، وتألق معانيه بالحق والهدىٰ والرحمة صارعته الوثنيات، ومن عجب أن يستنصر الإسلام بأهله فيأبىٰ أغلبهم إلا أن يخذلوه، ليس هذا فحسب، بل تراهم ضالعين مع عدوه ويزعمون أنهم هم المسلمون!!

من هذه القصة، بل هذه المأساة المحزنة يدرك الرجل الرشيد من أين جاءت البدع، وفي أي منسج حبكت، ويعرف كيف تقنعت الزندقة ثم زفت عروسًا إسلامية، والشرك كيف استخفىٰ، ثم استعلن علىٰ يد قوم سموه الحقيقة الروحية العليا للتوحيد في الإسلام.

وإنا لنلخص هذه القصة في أن الفرس ومعهم عدو الدين من كل ملة - كانوا يكيدون هذا لغرض سياسي وآخر ديني، فالسياسي هو هدم الدولة الإسلامية وعلىٰ أطلالها يبنون ملكًا فارسيًّا تؤله علىٰ عروشه الملوك، فما عرفوا قبل الإسلام خليفة أو ملكًا تنظر إليه الأمة علىٰ أنه راعيها ما أحسن الرعاية، بل كانوا يعرفون ملوكًا تزعم أنها من أبناء الآلهة.

والغرض الديني هو هدم الإسلام وبعث المجوسية، ترىٰ هل يستطيع أن نسأل هذا السؤال قليل الألفاظ كبير الدلالة، هل أفلح الفرس في محاولاتهم؟!

كل امرئ يدرك الجواب بمجرد إبداء السؤال، وإلا فأين الدولة؟ وأين الإسلام وأين هم المسلمون؟

وإنه ليجمل إتمامًا للبحث أن نعرض لآراء بعض المؤرخين والمفكرين في قصة

الكيد للإسلام:

يقول ابن حزم في كتابه الفصل - تعليلًا لفتنة الفرس وكيدهم للإسلام -: «لَّمَّا امتحنوا - يقصد الفرس طبعًا - بزوال الدولة منهم علىٰ أيدي العرب تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام ورأوا أن كيده بالحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت الرسول، ثم سلكوا بهم مسالك شتىٰ - حتىٰ أخرجوهم عن الإسلام - مثل القول بالحلول، ونبوة من ادعوا له النبوة والمهدي وسقوط الشرائع».

هذا رأي ابن حزم المجتهد البعيد النظر، الرحيب الأفق، لو تأملنا فيه قليلًا لرأيناه يجنح إلىٰ الصوفية - وإن لم يصرح باسمها هنا - بأنها وحل من أقذار الباطنية فالقول بالحلول هو قول الصوفية وسقوط الشرائع هو قول الصوفية.

وما دام هؤلاء هم كذلك، وأولئك هم الذين علمهم هذا فالصوفية امتداد للباطنة!!

ويقول المقريزي في الخطط[1]: (واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، وأن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد علىٰ جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها، بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يقدرون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة علىٰ أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتىٰ وفي كل ذلك يظهر الله تعالىٰ الحق، وكان من

---

[1] (جـ٢/ صـ ٣٦٢).

قائميهم شنغاد واشنيس والمقفع وبابك وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشًا وأبو مسلم السروح فرأوا أن كيده علىٰ الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستبشاع ظلم علي بن أبي طالب، ثم سلكوا بهم مسالك شتىٰ حتىٰ أخرجوهم عن طريق الهدىٰ).

هذا نص كلام المقريزي وهو يتفق وما قرره ابن حزم، بل يكاد يتفق وإياه في لفظه، كلاهما قرر خروج كثير من الطوائف عن الإسلام بسبب كيد الفرس دينيًّا وسياسيًّا لهدم الإسلام ودولته.

ويقول ابن النديم في كتاب الفهرست(١): «قد كان قبل بني القداح قريب ممن يتعصبون للمجوسية ودولتها، ويجتهد لردها في أوقات منها بالمجاهدة ومنها بالحيلة سرًّا، فأحدثوا لذلك في الإسلام حوادث منكرة، وقد قيل إن أبا مسلم(٢) صاحب الدعوىٰ رام ذلك وعمل عليه فاخترم دون ذلك، وممن تجدد وأظهر وكاشف بابك الخرصي(٣)، وكان ممن واطأ عبد الله علىٰ أمره رجل يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بزيدان من ناحية الكرخ في كتاب أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وكان هذا الرجل متفلسفًا حاذقًا بعلم النجوم شعوبيًّا(٤)، شديد الغيظ من دولة الإسلام،

---

(١) الفهرست ص(٢٦٧) طـ المكتبة التجارية.

(٢) يقصد أبا مسلم الخراساني الذي أقام الدولة العباسية بالمجوسية الكامنة في نفسه مما دعا الخليفة إلىٰ قتله.

(٣) بابك هذا أبوه من المدائن وكان يقول: إنه إله. وانظر أخباره في كتاب الفهرست لابن النديم ص(٤٨١).

(٤) **قال في اللسان**: والشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرىٰ لهم فضلًا علىٰ غيرهم، =

وكان يدين بإثبات النفس والعقل والزمان والمكان والهيولي، ويرىٰ أن للكواكب تدبيرًا وروحانية، فخبرني عنه الثقة أنه كان يزعم أنه وجد في الحكم النجومي انتقال دولة الإسلام إلىٰ دولة الفرس ودينهم الذي هو دين المجوسية في القرن الثامن».

ويقول صاحب المواقف عن طائفة الغيارية: (وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع علىٰ وجود تعود إلىٰ قواعد أسلافهم).

ويعلق شارحه علىٰ هذا بقوله: «وذلك أنهم اجتمعوا فتذاكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك وقالوا: لا سبيل لنا إلىٰ دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم علىٰ الممالك، لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلىٰ ما يعود إلىٰ قواعدنا، ونستدرج به الضعفاء منهم فإن ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلمتهم» أنرىٰ بُعد النظر ودقة الفهم لحقَيقة هؤلاء؟

ويقول أبو المظفر الإسفراييني: «ذكر أهل التواريخ أن الذين وضعوا دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكان ميلهم إلىٰ دين أسلافهم، ولكنهم لم يقدروا علىٰ إظهاره مخافة سيوف المسلمين، فوضعوا قواعد علىٰ موافقة أساس وضعوه حتىٰ تغتر بهم الأغمار(١)».

ويقول الأستاذ الكبير الدكتور أحمد بك أمين: من أسباب الزندقة وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلىٰ العباسيين لم يحقق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية إلىٰ يد أخرىٰ هي يد العباسيين،

=

ويقول في الصحاح: «الشعوبية فرقة لا تفضل العرب علىٰ العجم».

(١) ص(٨٤) من كتاب التبصير بأبي المظفر الإسفراييني.

ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها في سلطتها ولغتها ودينها، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهرًا إن أمكن وخفية إذا لم يمكن.

ويقول: «كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالإسلام ولكن آمنت بسلطانه، ورأت أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال إلا بالإسلام فاعتنقته ظاهرًا وظلت تخلص لدينها القديم.

وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا، إذ رأوا أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالانتساب إليها أولًا حتىٰ يؤمن جانبهم، وحتىٰ يسهل علىٰ النفوس الأخذ بقولهم، ثم هم بعد ينفثون تعاليمهم علىٰ أشكال مختلفة، طورًا في العلم والدين... ومن حين لآخر كان يعثر علىٰ بعضهم فينكل بهم، ولكنهم لا يبيدون، أحيانًا يعملون أفرادًا، وأحيانًا يعملون جماعات».

ويقول عن العصر العباسي: «وكان من الطبيعي أن يكون في هذا العصر زنادقة دعاهم إليها دواع مختلفة، فقوم دعاهم إليها دين العزة قديمًا وهو دين المجوسية، وكان لهم فيه آباء عديدون وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف من السلف، ولكنهم رأوا جاهًا عريضًا، ومناصب عزيزة لا يستطيعون الوصول إليها إلا أن يسلموا فأسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، واتخذوا الإسلام ثيابًا ظاهرية يخلعونها إذا خلوا إلىٰ أهليهم، وهم إذا - أمكنتهم الفرصة - كادوا للإسلام والعرب ودعوا للشعوبية والمذاهب الدينية»(١).

---

(١) هذه النصوص نقلناها عن كتاب ضحىٰ الإسلام ج (١) ط (٤) ص (١٤٥، ١٥٦، ١٦٢).

ويقول أمين بك أيضًا: «والحق أن التشيع كان مأوىٰ يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج علىٰ مملكته، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارًا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم»(١).

ويقول المستشرق كارل هنيرسن في مقال له عنوانه: (تراث الأوائل في الشرق والغرب)(٢): في اللحظة التي تخطىٰ فيها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم، وكان الاعتقاد السائد من قبل أن هذا الصراع قد ظهر في صورة مناظرات جدلية مع المسيحية، أما اليوم فيستطيع المرء أن يدرك أن المانوية والزرادشتية كانتا له عدوتين خطيرتين كالمسيحية علىٰ أقل تقدير، وأن غنوص المانوية والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة علىٰ الإسلام خطرًا مباشرًا.

«فالغنوص إذن كان يحارب الإسلام دينيًّا وسياسيًّا» والزرادشتية ديانة فارسية ثنوية عليها طابع التفاؤل، أما الغنوص فمذهب ينزع إلىٰ الثنائية بين المادة والإله وإلىٰ تأليه(٣) وسطاء بينهما. وهكذا أفلح الكائدون للإسلام والمسلمين.

---

(١) فجر الإسلام ص (٢٤٣) طـ (٥).

(٢) من كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص(٨ - ١١).

(٣) «زرادشت شخص فارسي ادعىٰ له قومه النبوة، وكان ثنويًّا يقول بأورمزد إلهًا للخير وأهرمن إلهًا للشر، ولكنه جعل الغلبة في النهاية لإله الخير، أما ماني فكان ثنويًّا يقول بإله النور وإله للظلمة، ولكنه جعل النور ممتزجًا بالظلام ولا خلاص إلا بفناء العالم، لهذا كان زرادشت داعية تفاؤل وعمل ولذة، وكان ماني داعية زهد وقطع للنسل. أما الغنوص فكلمة يونانية معناها في الأصل المعرفة، ولكن معناها الاصطلاحي هو النزعة =

فإذا بعقائد الأكثرية الغالبة من المسلمين فيها كل شيء إلا عقيدة الإسلام الحق، وإذا بالدولة الإسلامية كما ترونها مزقًا وأشباحًا علىٰ جباهها طابع الذلة، وعلىٰ أفواهها أنات الاحتضار، يهوىٰ عليها الغاصب الظلوم الغشوم، وهي تستدفع ظلمه وتتوسل إليه بالرمم أن يرعاها ويرحمها!

= إلىٰ إدراك كنه الأسرار الربانية بواسطة هذا النوع السامي من المعرفة الذي يقابل ما يسمىٰ عند الصوفية المسلمين باسم الكشف أو هو هذا نفسه، والذي أعطاهم هذا المعنىٰ هم طائفة من المفكرين إن صح أن نسميهم بهذا الاسم - عاشوا في القرون الأربعة الأولىٰ من ميلاد المسيح، ومنهم من كانوا مسيحيين ومنهم من كانوا يهودًا أو وثنيين، فالمسيحيون منهم مثل القديس كليمانس الأسكندري والقديس أوريجانس كانوا يرمون من وراء هذا إلىٰ تأييد المسيحية فحسب. أما أنصار هذا المذهب الحقيقيون أمثال بزليدس وفلنتينوس ومرقيون فهم الذين خلطوا الإيمان بأنواع مختلفة من التفكير الشرقي القديم، وخصوصًا الفارسي والسرياني، وباللاهوت اليهودي، وبعض المذاهب اليونانية الفلسفية وهي الأفلاطونية والفيثاغورثية والرواقية، وكونوا من هذا كله نوعًا من الصوفية، وأهم آراء هذه الصوفية القول بالثنائية بين المادة والذات الإلهية، ثم محاولة اجتياز الهوة التي تفصل بينهما عن طريق سلسلة الوسطاء، فالذات الإلهية أو القوة الكبرىٰ يصدر عنها العقل، ثم النوس، ثم اللاغوس، ثم الأمثروبوس، ويتلوها مقدار كبير من الكائنات الروحية أو الأيونات في تدرج تنازلي حتىٰ تصل إلىٰ المادة وهي أصل الشر، والسبب الذي من أجله انحطت طبيعة الإنسان، ولكن الإنسان يستطيع عن طريق الخلاص أن يعود إلىٰ الذات الإلهية، والأصل الأول، علىٰ شكل تصاعدي يبدأ من المادة ويمر بالأيونات حتىٰ يصل الذات الإلهية» نقلًا عن كتاب التراث اليوناني ص(٨) للدكتور بدوي.

وحق ما يقول دي بور: «أخذ[١] تدهور الإمبراطورية يتجلىٰ شيئًا فشيئًا، وكان سلطان الجنود الترك وثورات العامة في المدن، وثورات الفلاحين في القرىٰ، ودسائس الشيعة والإسماعيلية من كل جانب، ثم نزوع الولايات النائية إلىٰ الاستقلال، كل ذلك كان من أسباب سقوط الإمبراطورية أو من علاماته... ونزلت مكانة الخلفاء فلم تبق لهم إلا مكانة دينية، وأخذت تتكون شيئًا فشيئًا دول صغيرة مستقلة في أطراف الإمبراطورية يدهش الناظر لكثرتها...

ثم توالت في القرن السابع الهجري هجمات التتار، تجتاح البلاد الشرقية من الإمبراطورية الإسلامية».

ويحدثنا بروكلمان عن ثورة المقنع فيقول: «كان[٢] بنو العباس يستهدفون بين الفينة والفينة للخطر يأتيهم من الثورات المذهبية المضطرمة في خراسان، الواقعة في أقصىٰ الطرف الشرقي من الإمبراطورية حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامانية[٣]، وحيث كان الدين الإيراني القومي علىٰ الخصوص لا يزال

---

[١] ص(٧، ٨، ٩) من كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة الأستاذ عبد الهادي أبو ريدة طـ١٩٣٨م.

[٢] ص(١٣) من كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية جـ(٢) في موضوع الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها لكارل برد كلمان نقله إلىٰ العربية الدكتور بلية أمين فارسي، ومنير البعلبكي نشر دار العلم للملايين سنة ١٩٤٩.

[٣] نسبة إلىٰ كلمة شامان وتعود في النهاية إلىٰ أصل سنسكريتي بمعنىٰ كاهن أو ساحر يزعمون أنه كان في مقدوره الاتصال بالأرواح الصالحة والشريرة، وقد عمت هذه الديانات الشعوب النازلة في منطقة جبال أورال من مغول وأتراك المعربان.

يؤثر في عقول الناس تأثيرًا قويًّا، فليس من شك في أن المنصور نفسه قد تخلص من أبي مسلم، وأنه أمر سنة ٧٥٨م بالفتك ببعض المتعصبين له من أهل خراسان «الأوندية»، عندما ظهروا أمام مقره في الهاشمية ليمجدوه «يقصد أبا مسلم» بوصفه تجسدًا للذات الإلهية، وكان قد سعىٰ إلىٰ تهدئتهم بالكلام الرقيق فأبوا.

ولكن رجلًا فارسيًّا من مرو ومن رجال أبي مسلم المقربين إليه - واسمه حكيم - ما لبث أن ظهر سنة ٧٧٨ في أتباعه، وادعىٰ أنه التجسد للذات الإلهية بعد موت مولاه، وإذا كان يبرز دائمًا للجماهير وعلىٰ وجهه نقاب موشىٰ بالذهب، يزعمون منه أن الغرض منه أن يحجب - كنقاب موسىٰ - بهاء الذات الإلهية عن العيون الدنسة غير الجديرة بالنظر فقد عرف في التاريخ بلقبه: «المقنع».

ومن قلعة سنام قرب كسن في ما وراء النهر استطاع هذا الثائر أن يخضع الإقليم كله، في حين كانت ثورة أخرىٰ من ثورات الخوارج تندلع نيرانها في خراسان... وكانت العقائد الشيوعية التي بشر بها مزدك، في العهد الساساني، قد بعثت قبل عام واحد في مقاطعة جرجان، لتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة علىٰ عهد الرشيد».

ويقول بروكلمان في ص (١٥) من الكتاب نفسه عن محاربة المهدي للزنادقة: «إن الثورات المذهبية التي سبق أن أشرنا إلىٰ اشتعالها في الولايات الفارسية حملت الخليفة علىٰ أن يراقب بشدة بالغة حياة رعاياه العقلية في قلب الإمبراطورية أيضًا، والواقع أن المانوية لا الزرادشتية الخالصة، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير علىٰ أولئك الذين دخلوا حديثًا في الإسلام، ثم لم يرتاحوا ارتياحًا كليًّا لشعائره، بل لقد كادت تكون المانوية دين الطبقات المثقفة».

ويقول دي بور في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية ص(٩٦) عن القرامطة: «كان رئيس القرامطة مؤسسًا لحركة من هذا الطراز، وتدرب علىٰ مذاهب الفلاسفة الطبيعيين، واستطاع أن يؤلف بين أهل الإيمان وأهل الزندقة وأن يجعل منهن حزبًا يعمل علىٰ قلب الدولة العباسية، وكان يحتال في اجتذاب البعض بإظهار الشعوذة والسحر والتخريق، وفي اجتذاب البعض الآخر بإظهار الزهد والعبادة والعلم».

ها نحن نقلنا آراء كثير من مفكري الإسلام ومؤرخيه ممن يتسمون بالحيدة في التفكير، والدقة في التاريخ، والمعرفة بحقائق الأمور في الدولة الإسلامية وما اعتراها، وكثير من مفكري الغرب ممن اتسموا بالبحث الحر الخالص.

وما استعرضنا ذلك عبثًا، وإنما أردنا توجيه الفكر والقلب والروح إلىٰ الإسلام لندافع عنه بالفكر وبالقلب وبالروح، وندفع عنه كيد أعدائه الذين تقنعوا بالأسماء الإسلامية وبالوطن الإسلامي، وبالاحترام الزائف للرسول ومحبته، وما نريد اليوم أن ندافع عن الإسلام بالمدافع أو الدبابة، بل يجب قبل كل شيء تطهير عقائد المسلمين من أدرانها وأوشابها، وحينئذ تكون الجماعة جماعة إسلامية حقة، وحينئذ تكون القلوب قلوبًا مسلمة والعزائم عزائم مسلمة.

وحينئذ يكون السيف سيفًا مسلمًا والمدفع مدفعًا مسلمًا، يصنعان ما صنع الفاروق وسيوفه وأبطاله، أما أن يظل المسلمون بالاسم علىٰ ما ورثوا من عقائد ليس فيها قبس من نور القرآن ولا أثارة من حقيقة السنة، فلن تقوم لهم قائمة.

أوجد قلوبًا مسلمة يعطك الله دولة مسلمة ترتكز أعلامها كما كانت علىٰ صياصي الدنيا الشامخات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وغاية أخرىٰ نهدف إليها من تقرير ما قررناه من أساليب الكيد للإسلام، هي

القول بأن التصوف نشأ أول ما نشأ في أرض فارسية علىٰ يد مجوسي من الفرس، بأفكار فارسية وديانة فارسية بأهداف فارسية، الغرض منها هدم الإسلام والإطاحة بدولته.

ولقد ثبت ما قررناه أيضًا أن هذه الآراء المجوسية التي نفثتها هذه الفرق التي قامت لتقويض الإسلام وطي بساطه هي نفس الحميم أو الغسلين الذي تجرعه الصوفية يريدون به ما كان يريده الفرس. فثبت أن هذا التصوف الذي نشأ هذه النشأة ليس هو الإسلام الذي أشرق نوره في الجزيرة العربية ليكون منارًا هاديًا للإنسانية كلها في كل مكان وزمن حتىٰ تقوم الساعة.

ونختم هذا الفصل بقول الله رب العالمين، عبرة وتبصرة وذكرىٰ لقوم يؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

ونذكر أيضًا بقول رب العالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٤-١٠٢].

ترىٰ أيذكر المسلمون؟ ترىٰ استيقظ أحلاس الصوفية وسدنة هياكلها؟

بيئة التصوف:

البيئة التي نشأ فيها التصوف:

للبيئة بمعانيها المختلفة أثر كبير في تكييف ما يعتنقه الإنسان من عقائد، أو يتمثل فيه من أخلاق، أو يخفق به قلبه من عواطف، أو يدين به من أفكار ويسبح فيه من خيالات، ويختلج في نفسه من مشاعر، ويكون تأثير البيئة إيجابيًّا فينشأ الإنسان وهو مسرح تظهر عليه رواية البيئة فصولًا ومناظر، ينشأ وفيه ما في البيئة من خير أو شر، ونبل أو سفالة، إلا أن تتدخل الوراثة فتجعل تأثير البيئة سلبيًّا في النفس، فإذا بهذه النفس وقد اعتملت فيها الثورة علىٰ أوضاع البيئة وعاداتها وقوانينها ونظمها السائدة، ومن هؤلاء العباقرة المصلحون، ومنهم أيضًا الشواذ المجرمون.

فالعبقري المصلح يحاول بعزيمته الوثابة وبفكره المتقد تغيير نظام البيئة، وتبديل قيمتها التي تؤمن بها وغاياتها التي تسعىٰ حثيثة إليها، وتصحيح نظرتها إلىٰ الأشياء وحقائق الفكر والفضيلة والوجود، والمجرم الشاذ يثور علىٰ بيئة يحاول اعتذاب كل شيء فيها لنفسه، وتحويل مجراها الدفاق ليصب في مجراه وحده.

وذلك العبقري في البيئة الفاسدة يعمل، وهذا المجرم في كل بيئة يعمل، ولما كان للبيئة تأثيرها القوي الدفاع أحببنا أن نعرض طرفًا من سيرة البيئة التي ظهر

فيها التصوف، ثم أمدته بما عربد به من وثنية وما طفح به من مجوسية، وما هدف إليه من غايات عنون باسم الخير والحق وهي في ذاتها شر وباطل، وما عرضنا هذا إلا لتفهم كيف اعتنق الصوفية عقائد فيها برهمية بوذية وزرادشتية مانوية ويونانية أفلوطينية فيلونية⁽¹⁾، ومسيحية نفثت فيها الفلسفة الحلولية سمها الناقع، ويهودية

---

(١) برهمية نسبة إلىٰ براهما إله الهنود قديمًا، والبرهمية تطور للديانة الغيدية الهندية، أما بوذا فهو زاهد برهمي كان اسمه سكياموني أي: زاهد قبيلة سيكا وكان ابن شيخها ثم اعتزل حياة الرفاهية، وأعلن بعد ذلك أنه بوذا أي حكيم أو ملهم مستنير، أما زرادشت فكان موضع شك عند المؤرخين ثم تحقق أنه كان من قبيلة ميديا في الجزء الغربي الشمالي من فارس، وقد ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ومات نحو سنة ٥٨٣ قبل الميلاد بعد أن عمر ٧٧ سنة، وهو شخص يزعم الفرس أنه نبيهم أما المانوية فسبق ذكرها وسندها من قبل، أما الأفلوطينية فنسبة إلىٰ أفلوطين ويلقبه الشهرستهاني بالشيخ اليوناني، وجد ما بين سنة ٢٠٣، ٢٦٩م وهو الذي حول تعاليم الأفلاطونية الحديثة إلىٰ مذهب، وسنذكر إن شاء الله شيئًا عن فلسفته بعد.

أما الفيلونية فنسبة إلىٰ فيلون وهو يهودي لم يحدد تاريخ ميلاده بالضبط، وهو يذكر ما بين سنة ٤٠ قبل الميلاد، ٤٠ بعده، وقد كتب شرحًا كبيرًا علىٰ التوراة يريد من وراء ذلك أن يظهر لليونان أن في التوراة فلسفة، وأن فيها أسمىٰ مما في فلسفة اليونان، غير أنه في شرحه للتوراة استعان بالفلسفة اليونانية رغم ذلك من أفلاطونية وأرسطوطالية ورواقية وفيثاغورية، وسنذكر قليلًا عن فلسفته الدينية المضطربة. (انظر الجانب الإلهي ج (١) للدكتور البهي بك، كتاب الفلسفة في الشرق لبون ماسون أورسيل، وخريف الفكر اليوناني للدكتور بدوي، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم).

مجرمة طقوسها تبعد عن الحق بعض الأرض عن السماء.

كانت البيئة الإسلامية في أول أمرها بيئة نقية خالصة يهديها القرآن إلىٰ الخير والحق والمحبة، وتبين لنا السنة ما دق عليها فهمه، أو اشتبه عليها علمه.

فالحياة كانت في تلك البيئة تسير علىٰ نمط إسلامي لحمته الهدىٰ وسداه السلام والفضيلة، والتفكير علىٰ أسلوب عربي يمتاز باليسر والبساطة، وعدم التعمق الجدلي في أسرار الحياة وكنه حقيقة الوجود، أو السير وراء الخيالات والتهاويل السحرية من صور التفلسف.

فالقرآن بين لهم عن الله ما تهدأ به النفوس، وتطمئن به القلوب، وتقر الأرواح التي أضناها الاضطراب وعذبتها الحيرة، بين لهم من صفاته المقدسة ما يجب ويحب أن يوصف بها، بين لهم أن ليس بينه وبين عباده من وسائط، فكل امرئ بما كسب رهين، بين لهم ما يجب علىٰ عباده له وما هي حقيقة صلتهم بالله، والسبيل القويم الذي يهديهم إلىٰ الله، فلا حاجة بالمسلمين إذن إلىٰ البحوث الفلسفية في حقيقة الله: من هو؟ وكيف هو؟ وكيف صدر الكثير عن الواحد؟ وهل الإله هو الوجود أو غيره؟ وهل صفاته عين ذاته أو هي غيره؟ إلىٰ غيره من تلك البحوث التي لا طائل تحتها.

بل هي التي ليس فيها سوىٰ الحيرة والشك والريبة والقلق المضني، والزندقة الفاجرة، وكانت الثقافة في كل ألوانها عربية إسلامية نقية، ثم امتزج العرب المسلمون بغيرهم من الأمم امتزاجًا قويًا، حيث فتح العرب المسلمون كثيرًا من الممالك التي كان لكل منها دين خاص، وثقافة خاصة، ومناخ في التفكير تباين التفكير العربي الإسلامي في صدره ووروده.

فتح العرب المسلمون العراق وفيه من ربيعة ومضر قبائل، وفيه من الفرس جماعات غير سكان البلاد الأصليين، وكان من أولئك وهؤلاء نصارىٰ ومزدية وزرادشتية.

وفتحوا فارس وكان يسكنها الفرس ومن اليهود والروم قلة، أولئك الروم الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية.

وفتحوا الشام وكان من قبل محط رحال أمم مختلفة ومدنيات متباينة من فينيقيين وآشوريين وكنعانيين وفراعنة ويونان وروما وعرب غسان، وأخيرًا كان إقليمًا رومانيًّا ثقافته رومانية وديانته نصرانية، وكان يسكن الشام عند فتحه سوريون، وأرمن ويهود وروم وقبائل عربية كغسان ولخم وجذام.

وفتحوا مصر أهل المدنيات القديمة ووارثة الحضارات المصرية واليونانية والرومانية، وناهيك بالإسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الملية وملتقىٰ الآراء الشرقية والغربية، وكان من سكان مصر يهود وروما غير سكانها الأصليين، وفتحوا بلاد البربر من برقة إلىٰ مضيق جبل طارق، وكانت كلها في يد الرومان.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحوا السند وبخارىٰ وخوارزم وسمرقند إلىٰ كاشغر.

فماذا ينتج عن هذه الفتوحات؟ وهل يرضىٰ المغلوب عن الغالب؟

نتج عن هذه الفتوحات امتزاج قوي شمل كل العناصر المقومة للحقيقة الوجودية والإنسانية، بين الفاتحين الظافرين وبين غيرهم من الأمم التي دانت لحكمهم، امتزاج في الدم بالزواج والرق، امتزاج في التقاليد واللغة بالجوار

والسكنىٰ والمجادلة، امتزاج في العقائد الدينية لما بيناه في فصل الكيد للإسلام. وهؤلاء المغلوبون دخلوا الإسلام طوعًا أو كرهًا ليكيدوا للإسلام بعد أن يلبسوا مسوحه.

وكان لهؤلاء المغلوبين أديان سابقة، وثقافات قديمة متباينة، أتراهم في إسلامهم أو أدائهم إياه يكونون كما شاء الله من الإسلام؟ اسمع لأمين بك يقول في كتابه: «أتظن أن الفارسي أو السوري النصراني أو الروماني أو القبطي إذا دخل الإسلام انمحت منه كل العقائد التي ورثها عن آبائه وأجداده قرونًا، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه؟ كلا. لا يمكن أن يكون ذلك. وعلم النفس يأباه كل الإباء، فللفارسي صورة للإله غير صورة النصراني الروماني وهما غير صورة النصراني المصري.

فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من الأمم الأخرىٰ فهموه بحذافيره كما فهمه العرب، إنما فهمه كل قوم مشوبًا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة، وفهموه بمعان قريبة من الألفاظ التي كانت تستعمل في ديانتهم» ثم يختم بحثه بقوله: «فلم تعد الأمة الإسلامية أمة عربية لغتها واحدة ودينها واحد، وخيالها واحد كما كان في عهد الرسول ﷺ، بل كانت الأمة الإسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب، وكانت الحرب سجالًا، فقد ينتصر الفرس وقد ينتصر العرب وقد ينتصر الروم»(١).

وحق ما يقول ذلك الأستاذ، فلقد صور الإله عند الصوفية بما صور به عند

---

(١) فجر الإسلام ص(٩٤-٩٦).

الغنوصية، وصور عند فلاسفة المسلمين وعند بعض المتكلمين بمثل ما كان صوره به اليونانيون مشوبًا بهندية وفارسية ونصرانية.

ويقول أيضًا أمين بك: «وأيًّا ما كان فقد انتشر في العصر العباسي آراء وملل ونحل لا عداد لها. وكانت الحرب فيها حربًا عوانًا بين كل ديانة والديانات الأخرىٰ وبين كل فرقة في مذهب والفرق الأخرىٰ، وأصبحت المملكة الإسلامية ميدانًا لكل هذه الحروب»(١).

ثم يزيدنا أمين بك بيانًا عن البيئة الدينية والثقافية في العصر العباسي بقوله: «حياة فيها لهو ومجون، ونعيم ورخاء، وحياة في جد وزهد، وبؤس وشقاء، ونرىٰ صراعًا بين الشك والزندقة والإلحاد، وبين الإيمان الخالص والاعتقاد الصادق، ويخيل إلينا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أنا في موقف مستمر تستخدم فيه كل وسائل الحروب، فخدع ومكايد ووسائل سرية أحيانًا ولجوء إلىٰ السيف وسفك للدماء أحيانًا، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانًا، ثم الحرب سجال يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام، وبما يضلون من ناشئة وشبان، فإن عجزوا ظاهرًا استعملوا طريق الغواية سرًّا تحت مظهر التشيع، أو الغيرة علىٰ الإسلام، أو نحو ذلك».

تلك هي البيئة التي نشأت فيها عقائد المتصوفة وغذتها بتعاليمها، وهي بيئة كان فيها من يظهر الغيرة علىٰ الإسلام وهو من ألد عدوه، بيئة كان فيها مجوسية مقنعة أحيانًا سافرة عن كلوحتها أحيانًا، فيها فلسفة هندية مشربة بطقوس هندية

---

(١) ضحىٰ الإسلام (صـ٣٥/ حـ٣)، طـ(٣).

أو نصرانية أو يهودية.

بيئة اختلط فيها الشرك بالتوحيد والكفر بالإيمان والباطل بالحق، فكان من ذلك كله أمشاج يلمع منها جانب وتظلم منها جوانب أخرىٰ، وتلوح فيها أثارة من حق وتتدجىٰ منها ركامات طخياء من الشرك والباطل، وزافت هذه الأمشاج علىٰ المسلمين ممن بعدوا عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، فكانت فلسفة وكان تصوف وكان علم كلام.

وما بعد المسلمون عن كتاب ربهم إلا هانوا وذلوا واستكانوا للغاصب المستعبد.

وتلك حقيقة طردية الاتجاه واقعية مشهودة المعالم، ماذا كان المسلمون لما اعتصموا بالله وكتابه ورسوله؟ ثم إلىٰ أين هووا حين فروا عن ربهم وكتابه وسنة رسوله؟

هل المسلمون اليوم ودولهم هم المسلمون في عهد أجدادهم من صحابة الرسول وتابعيهم؟

أو أن المسلمين اليوم أطياف باهتة، وأشباح هزيلة، علىٰ فم الذؤبان من دمهم خضاب، وتحت نعال الغاصب منهم الأحلام والآمال؟

يا من تتشدقون بأنكم مسلمون، من أنتم؟ وما دينكم؟ من حالكم نعرف وكل إنسان يدرك الجواب.

الصوفية نسبة وتاريخًا:

اشتقاق كلمة الصوفي: اختلف الباحثون - حتىٰ الصوفية أنفسهم - حول الأصل الذي ترد إليه كلمة صوفي، فبعض يقول: إنها نسبة إلىٰ الصفاء. ولكن هذا

الرأي خاطئ من ناحية اللغة، فالنسبة إلىٰ الصفاء صفوي لا صوفي، وبعض يقول: إنها نسبة إلىٰ الصفو، غير أن النسبة لغويًّا إليها صفوي لا صوفي.

وقيل: إنها نسبة إلىٰ الصف. إشارة إلىٰ أن الصوفية هم في الصف الأول بين يدي الله، غير أن النسبة أيضًا هي صفي لا صوفي. وقيل: بل هي نسبة إلىٰ الصفة[1]، التي أوىٰ إليها قوم من فقراء الصحابة بالمسجد النبوي بالمدينة. غير أن النسبة لغويًّا هي صفي لا صوفي.

وقيل: إنها نسبة إلىٰ صوفانة. وهو نبات قليل الغناء في الغذاء إشارة إلىٰ أنَّ

---

[1] الصفة التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب الرسول ﷺ كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ في شمال المسجد بالمدينة المنورة، وكان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه، ولم يكن أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلىٰ مكان آخر يتيسر له، ويجيء ناس بعد ناس وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين، وكان أهل الصفة ضيف الإسلام يبعث إليهم النبي ﷺ بما يكون عنده، فقد كانت الحاجة هي الغالب عليهم لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق، ولم يكن في الصحابة لا أهل الصفة ولا غيرهم من يتخذ مسألة الناس والإلحاف في المسألة صناعة وحرفة. [مجموعة الرسائل والمسائل (حـ١/ صـ٢٦ - ٢٧ – ٢٨ – ٣٠ – ٣٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية].

يثبت من هذا أن أهل الصفة لم يأووا إليها إلا لحاجة ماسة وفقر مدقع، لا كما يزعم الصوفية حين يحاولون التشبه بهؤلاء بالسجن في الخلوة، ألا بئست خلوة تمنعك عن اكتساب الرزق والجهاد في سبيل الله.

الصوفية لا يطعمون إلا طعامًا أدنىٰ شبهًا بالصوفانة في قلة غنائه، غير أن النسبة هي صوفاني لا صوفي.

وقال آخرون: بل هو منسوب إلىٰ صوفة القفا. وهي شعرات تنبت في مؤخرة إشارة إلىٰ أن الصوفية عطف بهم إلىٰ الحق وانصرفوا عن الخلق.

وقيل: بل هي نسبة إلىٰ رجل كان متحنثًا في الجاهلية اسمه صوفة. وقيل: بل هي نسبة إلىٰ الصوف(١) لما ارتضته الصوفية من لبس الصوف. وقد ارتضىٰ هذا الرأي السراج الطوسي(٢) وابن خلدون وزكريا الأنصاري(٣) ووافقهم في هذا شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه، والنسبة هنا من ناحية اللغة صحيحة، ولكن القشيري(٤) الصوفي صاحب الرسالة المشهورة في التصوف يقول: (ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف) يعني من هذا أن لبس الصوف لم يكن مميزًا لهم وحدهم بل كان غيرهم يلبسون الصوف، فتسميتهم بالصوفية نسبة

---

(١) واليوم وقبل اليوم كان وما زال الصوفية يرفلون في الملابس الحريرية، فما بقي لهم حتىٰ المظهر الذي كانوا يظهرون به ادعاء للزهد والرغبة عن الدنيا!!.

(٢) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي عبد الله بن علي بن محمد بن يحيىٰ أبو نصر السراج الطوسي مصنف كتاب اللمع في التصوف، توفي في سنة: ٣٧٨، شذرات الذهب، (٣/ ٩١). حاجي خليفة، كشف الظنون (١٥٦٢). الزركلي، الأعلام (٤/ ١٠٤).(ض).

(٣) هو زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري، فقيه مفسر ولد سنة (٨٢٦هـ) بشرقية مصر، توفي سنة (٩٢٦هـ). [انظر: «البدر الطالع» (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣)، و«معجم المؤلفين» (٤/ ١٨٢)].(ض).

(٤) هو عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي الصوفي، له «التفسير الكبير» «لطائف الإشارات» و«الرسالة». [انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٢٧)].(ض).

إلىٰ لبسهم الصوف يكون اسمًا مشتركًا بينهم وبين غيرهم، وبالتالي يكون غير خاص بهم ولا مميز لهم عن سواهم.

ويقول أيضًا حسن رضوان في منظومته الكبرىٰ التي تكاد تبلغ عشرة آلاف بيت من الرجز في قواعد الصوفية ما يأتي:

وقد جرىٰ من حيث الاشتقاق   في لفظة التصوف الشقاق
وكل ذي قول له توجيه   لقوله في نفسه وجيه
ولكن القياس والقواعد   في جملة الأقوال لا تساعد
والبعض منهم قد يقوي قوله   بالأخذ من صوف بلبسهم له
فقوله هذا وإن يكن وجد   له قياس في كلامهم عهد
لكن أهل الحق لم يختصوا   بلبسه ولا عليه نصوا(١)

وهكذا يعترف صوفيان أحدهما قديم زمانه والثاني لا يزال يوجد من كان يعرفه ويعاشره بأن النسبة إلىٰ الصوف نسبة غير صحيحة، بقي رأي للمحقق البيروني ذكره في كتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة» ص(١٦) فقد ذكر البيروني في معرض الكلام عن مذاهب الحكماء من اليونان والهند واشتراك أولئك وهؤلاء في مقالة واحدة أن منهم من كان يرىٰ الوجود الحقيقي للعلة الأولىٰ فقط لاستغنائها بذاتها فيه، وحاجة غيرها إليها وأن ما هو مفتقر في الوجود إلىٰ غيره، فوجوده كالخيال غير حق، والحق هو الواحد الأول فقط.

---

(١) ص (٤٨٠) من كتاب روض القلوب المستطاب ط ١٣٢٢ لحسن رضوان المتوفىٰ سنة ١٣١٠هجرية.

وقد عقب علىٰ ذلك بقوله: (وهذا رأي السوفية وهم الحكماء فإن سوف باليونانية الحكمة، وبها سمي الفيلسوف بيلاسوبا أي محب الحكمة. ولما ذهب في الإسلام قوم إلىٰ قريب من رأيهم سموا باسمهم)(١).

ورأي البيروني قريب جدًّا من الواقع، خصوصًا والقشيري يقول: «وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق» فهو اسم أجنبي إذًا عن العربية، ويؤيد رأي البيروني التقارب اللافت للنظر. والمنكرين عقائد المتصوفة ونظرتهم إلىٰ ما يسمونه الوجود المطلق والفيض الإلهي، وبين ما ذهب إليه بعض محترفي الفلسفة الحيوانية، أولئك الذين جعلوها هي الغاية العليا للمعرفة.

وقد أخذ بهذا الرأي من المستشرقين جوزيف فون هامر، إذ ذكر في كتابه تاريخ البلاغة عند: الفرس أن الصوفية ينسبون إلىٰ الهنود القدماء المعروفين باسم الحكماء العراة(٢)، وأن الكلمتين العربيتين صوفي وصافي مشتقتان من نفس الأصل الذي اشتق منه الكلمتان اليونانيتان سوفوس وسافيس.

وقد انتصر لهذا الرأي في العهد الأخير أولبير ميركس وإن كان المستشرق نولدك لا يرتضي هذا(٣)، أما أبو الفتح البستي فيقول:

---

(١) من كتاب الحياة الروحية في الإسلام. تأليف الدكتور محمد مصطفىٰ حلمي ص(٦٣) ط ١٩٤٥.

(٢) هو اسم أطلقه اليونان علىٰ بعض الهنود الذين كانوا يهيمون علىٰ وجوههم عراة أو لابسين قليلًا من الثياب، ويقضون أوقاتهم في التأمل والتفكير في الله.

(٣) ص(٦٧) من كتاب في التصوف الإسلامي وتاريخه للمستشرق نيكولون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي.

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدمًا وظنوه مشتقًا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتىٰ صافىٰ فصوفي حتىٰ لقب الصوفي

غير أن دعواه أن اسم صوفي مأخوذ من صوفي التي ذكرها فهىٰ دعوىٰ باطلة؛ لأن صوفي في شعره هو فعل مبني للمجهول، أما الصوفي لهو اسم وشتان ما هما!!

أما وقد استجدت الآراء وتضادت الأقوال حول هذا الاسم الذي اختلفت اشتقاقاته فكثرت آفاته، فلم لا يعود الصوفية إلىٰ ذلك الاسم الكريم الذي يدل لفظه علىٰ معناه، والذي سمىٰ به الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل هذه الأمة، وذكره الله في القرآن وهو لقب المسلمين، فإن هذا الاسم الكريم هو الآية المميزة لهذه الأمة الكريمة، وارتضاه رب العالمين، وسمانا به خليل رب العالمين؟

يا ترىٰ هل استشعر الصوفية من قديم أنهم غير مسلمين؟ إن من هتف بهذا الاسم أراد أن يصدع المسلمين فيجعلهم مزقًا وفرقًا؟ أيحتقر الصوفية اسما ارتضاه الله لهذه الأمة ويختلقون لأنفسهم اسمًا ما أنزل الله به من سلطان؟

متى ظهرت الصوفية؟

فمتىٰ ظهر هذا الاسم وطل وجهه البغيض؟

إنه ظهر في منتصف القرن الثاني للهجرة، وشاعت التسمية به في أواخره، والصوفية يزعمون أنهم يمثلون الدرجة العليا من الإسلام، فلو كان كذلك لسمي به رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه، لسمي به الخليفة الأول، لسمي به عمر، لسمي به عثمان، لسمي به علي، ومن إليهم من جلة الصحابة والتابعين!

ولكن لم يسم به أحد ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وإن حقيقة الدين الكبرىٰ لتستهل فيضًا قدسيًّا أو إشراقًا علويًّا، وروحانية سامية من هذا الحديث

النبوي الكريم الذي ختمه بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

تلك هي الذروة العليا للروح الإنساني في عبوديته، والقمة التي تعج من تحتها الحياة وتصخب الدنيا وهي قائمة لا تتزلزل، سأل جبريل النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان، من هذه الحقائق كلها يتكون الدين الإسلامي، وما سأل فيما سأله عن شيء اسمه التصوف، فلو أن الصوفية - حين شاءوا أن يبرأوا من لقب المسلمين - تسموا باسم من هذه الأسماء ذات الدلالة المشرقة الواضحة، لكان لها في القلوب أثر أي أثر، في حين أن المسلم لا يكفيه أن يكون مسلمًا فحسب، بل كذلك مؤمنًا محسنًا.

فليس التفضيل في الحديث تفضيل مراتب أو حقائق ينفصل بعضها عن بعضها، بل هو تفصيل لحقيقة واحدة لابد أن تكون كلها في قلب المسلم وعمله وقوله وشعوره وإدراكه، ليس معنىٰ الحديث أن هناك في الدين مرتبة هي الإسلام الذي عرفه الحديث تكفيك في عبوديتك، تسمو من بعدها إلىٰ مرتبة أسمىٰ هي الإيمان، إلىٰ أسمىٰ هي الإحسان، بل الذي يفهم من الحديث أن يكون قولك وعملك إسلامًا، وأن يكون اعتقاد إيمانًا، وأن تكون نيتك إحسانًا.

أقول هذا؛ لأن بعض من خدعوا بغش الصوفية يقولون إنهم في المرتبة الثالثة من الإسلام وهي الإحسان، فهم يعبدون الله كأنهم يرونه.

وإني لأسأل هؤلاء المخدوعين بالصوفية ما هذه العبادة التي يعبد بها الصوفية ربهم كأنه يرونه؟ أهي عبادة الإسلام واعتقاده، أم هي أمر آخر؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

إن كانوا كما أمر الله فلم شاءوا أن يتميزوا عن إخوانهم المسلمين بلقب الصوفية؟

وهذا سؤال وجواب علىٰ طريقة التنزل معهم، أما الحقيقة فالصوفية لا يعبدون الله بما أمر وبين رسوله، وسنبرهن بالقواطع من الحجج الدامغة علىٰ هذا.

ومن الله نستمد العون والتوفيق ولوجه الله ما نبين ونقول ونعمل.

قسما التصوف وطقوسه العملية:

قسما التصوف:

للتصوف عند أربابه قسمان أحدهما نظري والآخر عملي، أما العملي فهو قائم عند الصوفية علىٰ التقشف والزهد المتطرف، وعلىٰ طقوس عنيفة مما يسمونه المجاهدات وضروب أسطورية من الرياضيات للحس والنفس، فهو إذًا عمل وسلوك.

أما النظري فهو قائم علىٰ التأمل في الكون، ونشدان المعرفة بأسراره وهويته، وبحقيقة صلته بالعلة الأولىٰ عن طريق الكشف أو الشهود.

وهل تكثر المظاهر يعني كثرة الظاهر؟ أو أن الكثرة تكمن فيها الوحدة وهل الوجود المطلق عين الوجود المقيد؟

وهل العلة الأولىٰ في إطلاقها وتوحدها هي بعينها في تقيدها وتكثرها؟ فالتصوف النظري إذًا لون من ألوان المعرفة القائمة لا علىٰ الحس وواقعية الكائنات، ولا علىٰ العقل وقضايا التفكير بل علىٰ الذوق، والنظرية غالبًا وليد التطبيق، والعلم غالبًا نتيجة العمل، فهذا تأخر ظهور التصوف النظري عن التصوف العملي.

طقوس التصوف العملي:

الزهد: قد يسمع الجهول من كتاب الله آيات في ذم الدنيا وزينتها، فيفهم

لجهله وغبائه أن نجاة المرء لا تكون إلا في تركها والانحياز إلىٰ خلوة أو قمة جبل شاهقة، أو شعاب نائية خفية في الصحراء هربًا منها، غير مدرك لمعنىٰ ذم الدنيا، غير فاهم لما ذمه الله من الدنيا أو ما هي الدنيا المذمومة، فيقضي الحياة نائيًا عن الدنيا، بعيدًا عن الجماعة والجمعة، ولو تبين هذا الغبي الجهول لعلم أن الدنيا من نعم الله الجليلة الفياضة الرحمة والخير.

والله لا يذم نعمه، الله لا يذم صنيعًا جعل منه قوام الحياة بمعانيها المختلفة، جعل منه سببًا في بقاء الإنسان وقدرته علىٰ القيام بفرائض ربه من عبادة وجهاد وتعاون مع الجماعة الإنسانية في سبيل الخير، وتحصيل للعلم والمعرفة، ليست الدنيا مذمومة إلا حين تكون علاقتك بها هي المذمومة، كأخذك منها ما حرمه الله عليك، أو تناولك منها لذائذها برعونة وتبذير وإسراف، ومحاولتك جمع ما فيها لنفسك من غير الطرق التي أذن لك الله فيها، فليست الدنيا مذمومة لذاتها.

بل إنما المذموم ما فيك من غرائز الحيوانية المنهومة الضارية تدفعك إلىٰ قصف الشهوات وهصر الرغبات الفاسقة الرعناء من الدنيا، وما كان الرسول ولا أصحابه يفعلون ذلك.

فما انقطعوا في الخلوات والفلوات، وما كان أحدهم يجوع إلا إذا لم يجد طعامًا، وهذه سيرة الرسول(١) فاقرءوها وسيرة أصحابه.

---

(١) قد يقال تحنث الرسول في غار حراء، نعم ولكن فعل ذلك حين لم يجد الجماعة التي يستطيع أن يعبد الله بينها، أضف إلىٰ ذلك أن كل أيامه لم تكن كذلك، بل كان يرحل للتجارة في مال خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وجل الصحابة من ذوي الفضل الكبير جمعوا المال - لا للمال - ولكن ليؤدوا منه حق الله وحق النفس وحق الزوج وحق العيال كما أمر الله، فقد خلف طلحة ثلاثمائة بهار في كل بهار ثلاثة قناطير، والبهار الحمل، وكان مال الزبير خمسين ألف ألف ومائتي ألف، وخلف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تسعين ألفًا، وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلفوها ولم ينكر أحد منهم علىٰ أحد⁽¹⁾، وقد طلب سليمان النبي الحكيم ملكًا وطلب إبراهيم المال والزرع، وطلب شعيب، وقد روىٰ أبو داود في سننه من حديث محمود بن لبيد عن جابر بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من خلفه فأخذها رسول الله ﷺ فخذفه بها، فلو أصابته لأقصعته أو لعقرته.

فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة. ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىٰ»⁽²⁾، وفي رواية أخرىٰ: **«خذ مالك، لا حاجة لنا به»**، ثم إن الرسول يقول: **«اليد العليا خير من اليد السفلىٰ»**⁽³⁾.

واليد العليا هي المعطية، هي ذات المال، ولكن الصوفية يذمون المال والدنيا.

---

(1) تلبيس إبليس لابن الجوزي.

(2) روىٰ البخاري شطره الأخير (١٤٢٦)، وكذا مسلم (١٠٣٤)، ورواه بتمامه أبو داود (١٦٧٣)، وضعف الألباني رواية أبي داود كما في الإرواء (٨٩٨).

(3) رواه البخاري (١٤٢٨)، ومسلم (١٠٣٣).

ويدعون إلىٰ الفقر والجوع والمرض. أبالفقر يقام للدين بناء؟ أبالجوع تستطاع عبادة الله؟

لقد قال لهم الغزالي في إحيائه: صلاتك قاعدًا من الجوع خير من صلاتك قائمًا مع الشبع، فآمنوا بالغزالي وكفروا بقول رب العالمين... أي زهد الذي تتحدثون عنه؟!

إن كلمة واحدة في القرآن هي الفيصل وهي التقوىٰ فاجمع الدنيا بتقوىٰ الله، وأنفق منها المال بتقوىٰ الله، وتناول طيباتها بتقوىٰ الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: ١١].

ما ذم الله المال يا قوم، وإنما جعله لك لتستعين به علىٰ عبوديته وتقواه، وحدد لك علاقتك به، فإن تعديت حدود الله كنت أنت المذموم لا الدنيا ولا المال.

وما الزهد إلا هندية برهمية كان أساسها تحقير الدنيا ليصلوا إلىٰ مقام «النرفانا»(١)، وهو ما يشبه الاتحاد عند الصوفية، أما الإسلام ففيه القوة، وفيه الطيبات، وفيه التقوىٰ(٢).

---

(١) من كتاب الحياة الروحية في الإسلام تأليف الدكتور محمد مصطفىٰ حلمي ص (٦٣) ط ١٩٤٥.

(٢) أما اليوم بل وقبل اليوم فما عند الصوفية زهادة إلا علىٰ أطراف الألسنة، أما قلب زاهد، أما نفس زاهدة، أما يد زاهدة، أما الحقيقة البشعة الشنعاء فسلوا صناديق الأضرحة =

الانقطاع في الخلوة: وننقل النقد القيم الحق لهذا من كتاب تلبيس إبليس(١) لابن الجوزي إذ يقول: «أما بناء الأربط فإن قومًا من المتعبدين الماضين اتخذوها للانفراد بالتعبد، وهؤلاء إذا صح قصدهم فهم علىٰ الخطإ من ستة أوجه، **أحدها:** أنهم ابتدعوا هذا البناء وإنما بنيان أهل الإسلام المساجد. **والثاني:** أنهم جعلوا للمساجد نظيرًا يقلل جمعها. **والثالث:** أنهم أفاتوا أنفسهم نقل الخطا إلىٰ المساجد. **والرابع:** أنهم تشبهوا بالنصارىٰ بانفرادهم في الأديرة. **والخامس:** أنهم تعزبوا وهم شباب وأكثرهم محتاج إلىٰ النكاح. **والسادس:** أنهم جعلوا لأنفسهم علمًا ينطق بأنهم زهاد فيوجب ذلك زيارتهم والتبرك بهم. وإن كان قصدهم غير صحيح فإنهم ندبوا دكاكين للكوبة(٢) ومناخًا للبطالة وأعلامًا لإظهار الزهد، وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم ولا يتورعون من عطاء ماكس، وأكثر أربطتهم قد بناها الظلمة ووقفوا عليها الأموال الخبيثة وقد لبس عليهم إبليس أن ما يصل إليكم رزقكم فأسقطوا عن أنفسكم كلفة الورع. فهمتهم دوران المطبخ والطعام والماء المبرد، وهؤلاء أكثر زمانهم ينقضي في التفكه بالحديث أو زيادة أبناء الدنيا، فإذا أفلح أحدهم أدخل رأسه زرمانقته فغليت عليه

= والتكالب عليها، سلوا القرويين والإتاوات المفروضة عليهم، سلوا لم يدعوا الصوفية إلىٰ نحر الذبائح للأنصاب؟ وسلوا كل شيء، فكل شيء يشعر تمام الشعور بأن دعوة الصوفية إلىٰ الزهد لم يكن مبعثها إلا الرغبة في أن يترك الآخرون من غير الصوفية أموالهم للصوفية، وليخلوا الجو للصوفية، وإلا فانظروا اليوم عند من توجد الأموال.

(١) ص (١٧٤).

(٢) الكوبة: الطَّبْلُ. (لسان العرب). (ض).

السوداء فيقول: حدثني قلبي عن ربي.

ولقد بلغني أن رجلًا قرأ القرآن في رباط فمنعوه، وأن قومًا قرأوا الحديث في رباط، فقالوا لهم: ليس هذا موضعه».

هذا نقد ابن الجوزي للأربطة، فما بالك بالخلوة التي يقبع الصوفي وحده داخلها كما اشترط الغزالي بشرط أن لا يشتغل بشيء حتىٰ بقراءة القرآن.

وإليك قول الغزالي، يقص به ما أمره به شيخ صوفي، حين أراد الغزالي سلوك طريق القوم: «شاورت متبوعًا مقدمًا من الصوفية في المواظبة علىٰ تلاوة القرآن فمنعني! وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يتلفت قلبك إلىٰ أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية، بل تصير إلىٰ حالة يستوي عندك وجودها وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة علىٰ الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب مجموع الهم مقبلًا بذكرك علىٰ الله تعالىٰ.

وذلك في أول الأمر بأن تواظب باللسان علىٰ ذكر الله تعالىٰ فلا تزال تقول: (الله الله) مع حضور القلب وإدراكه إلىٰ أن تنتهي إلىٰ حالة لو تركت تحريك اللسان، لرأيت كأن الكلمة جارية علىٰ لسانك لكثرة اعتياده»(١)، إلخ ما يهرف به حجة إسلامهم، المواظبة علىٰ قراءة القرآن ممنوعة بل شرط من شروط الخلوة عند الصوفية الذين بهم اقتدىٰ الغزالي، وترك الأهل والولد والوطن!!

فأية خلوة هذه التي تدعو إلىٰ إطراح كتاب الله؟! وإلىٰ هجران أهله، وولده وعقوق وطنه؟! عجيب من الغزالي الطموح إلىٰ قمة المجد الشاهقة في دنياه أن يطلب من غيره

---

(١) ص(٤٤) من كتاب ميزان العمل طـ١٣٢٨.

حبس نفسه في ظلمة الليل بين جدر صماء لا يناسمه فيها روح من كتاب الله!.

وجميل ما يقول الدكتور زكي مبارك(١) في هذه الناحية عن الخلوة عند الصوفية:

---

(١) ولد زكي عبد السلام مبارك في قرية سنتريس بمحافظة المنوفية في عام ١٨٩٢م، حصل علىٰ شهادة الأهلية من الجامع الأزهر عام ١٩١٦، وليسانس الآداب من الجامعة المصرية عام ١٩٢١، الدكتوراة في الآداب من الجامعة ذاتها عام ١٩٢٤، ثم دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية، في باريس عام ١٩٣١، ثم الدكتوراة في الآداب من جامعة السوربون عام ١٩٣٧، وربما لذلك استحق لقب الدكاترة زكي مبارك كما أطلقها عليه الشاعر محمد الأسمر.

ألف أكثر من أربعين كتابًا، وقد أتيح له أن يعمل في الجامعة المصرية، وعمل في الجامعة الأمريكية وعين مفتشًا للمدارس الأجنبية في مصر، ولكنه لم يستقر في هذه الوظيفة، وأخرج منها بعد أن جاء النقراشي وزيرًا للمعارف والدكتور السنهوري وكيلًا للوزارة.

وعمل في الصحافة أعوامًا طويلة، ويحدثنا أنه كتب لجريدة البلاغ وغيرها من الصحف نحو ألف مقال في موضوعات متنوعة، وانتدب في عام ١٩٣٧م للعراق للعمل في دار المعلمين العالية، وقد سعد في العراق بمعرفة وصداقة كثير من أعلامه، وعلىٰ الرغم مما لقي في العراق من تكريم إلا أنه ظل يحس بالظلم في مصر وهو يعبر عن ظلمه أصدق تعبير بقوله: «إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرًا علىٰ مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود... إن بني آدم خائنون تؤلف خمسة وأربعين كتابًا منها اثنان بالفرنسية وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة ومع هذا تبقىٰ مفتشًا بوزارة المعارف».

في مساء اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ توفي.(ض).

«وكان الظن بالصوفية وهم من أهل البصائر والقلوب كذا أن يعرفوا قيمة هذه الدنيا، هذا الملك الذي ضيعه أهله، كان الظن بهم أن يجاهدوا ما فيه من شهوات وأباطيل، ولكنهم آثروا الهروب والانزواء، وصاروا يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنىٰ الملك والقوة في هذا الوجود.

إن الاعتصام بشواهق الجبال فرارًا من ظلم الناس فيه ملامح شعرية ولكنه دليل علىٰ حب السلامة، وذلك من أخلاق الضعفاء، وأشرف منه أن تدخل المعركة، وأن يخضب الدم وجهك وصدرك ويديك، وأن تلقىٰ الله بوجه شريف لم يعرف صاحبه الجبن ولا الرياء ولا الخداع»⁽¹⁾.

حق هتف به الدكاترة زكي مبارك، ونحن نؤيد كلمة الحق، ونعني بها مجردة من عوارضها الشخصية أو الزمانية أو المكانية.

* * *

---

(١) ص (١٢٩) الجزء الثاني من كتاب التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك.